بيكيت أو شرف الله

ترجمة
سعد مكاوي

شخصيات المسرحية

الملك	LE ROI
ابناء الملك	LES FILS DU ROI
توماس بيكيت	THOMAS BECKET
كبير الاساقفة	L'ARCHEVEQUE
جورج فوليوت ، أسقف لندن	GEORGES FOLLIOT, Evêque de Londres
اسقف اكسفورد	L'EVEQUE D'OXFORD
اسقف يورك	L'EVEQUE D'YORK
الراهب الصغير	LE PETIT MOINE
البارونات الانجليز	LES BARONS ANGLAIS
ملك فرنسا	LE ROI DE FRANCE
البارون الفرنسى الاول	PREMIER BARON FRANÇAIS
البارون الفرنسى الثانى	SECOND BARON FRANÇAIS
البابا	LE PAPE
الكردينال	LE CARDINAL
الملكة	LA REINE
الملكة الام	LA REINE MERE
جويندولين	GWENDOLINE
قائد الحرس	PREVOT
رهبان	MOINES
جنود	SOLDATS
سكسون	SAXONS
خدم	PAGES
بنات	FILLES

الفصل الأول

ديكور غير واضح تنتشر فيه الاعمدة . انها الكتدرائية . قبر بيكيت فى وسط المنظر ، شاهد واسم محفور على الحجر . يدخل حارسان ويتخذان مكانيهما بعيدا ، ثم يدخل الملك من خلفية المسرح ، تاجه على راسه ، وهو عريان تحت عباءة واسعة ، يتبعه على مسافة وصيف . الملك يتردد قليلا امام القبر ، ثم فجاة يخلع عباءته فيحملها الوصيف . يجثو على ركبتيه مصليا على رخام القبر ، وحيدا وعاريا وسط المنظر . وخلف الاعمدة ، فى الظل ، نخمن وجود شخوص مقلقة .

الملك : حسنا يا توماس بيكيت ، هل أنت راض ؟ . ها أنا عريان على قبرك ، وسيأتى رهبانك ليضربونى . يا لها من نهاية لحكايتنا ! أنت ، يصيبك العفن فى هذا القبر ، وفى جسمك آثار من طعنات خناجر باروناتى وأنا ، عار كالأبله فى تيارات الهواء ، منتظرا حضور أولئك الأجلاف لينهالوا على بالضرب ، ألا تعتقد أنه كان أولى بنا أن نتفاهم ؟

بيكيت فى لباس كبير الأساقفة ، كما كان يوم موته ، يكون قد ظهر عن جنب وراء عمود . يقول برفق :

بيكيت : ما كان فى وسعنا أن نتفاهم .

الملك : قلتها لك : « كل شىء إلا شرف المملكة ! » ومع ذلك فانك أنت الذى علمتنى هذه القاعدة !

بيكيت : ولقد أجبتك : « كل شىء إلا شرف الله ! » . لقد كان حوارا بين أصمين لا يسمع أحدهما الآخر !

الملك : ما كان أشد البرد فى سهل فرتيه برنارد العارى ، فى آخر لقاء لنا ! وما أعجب أن يكون الجو باردا دائما فى حكايتنا . إلا فى البداية ، عندما كنا صديقين ، فلقد كانت لنا معا أمسيات صيف جميلة ، مع بنات... (يسأل فجأة) هل كنت تحبها ، جويندولين ، يا كبير الأساقفة ؟ . لقد حقدت على فى ذلك المساء الذى أخذتها منك فيه قائلا : « إنى أنا الملك ! » . ولعل هذا هو ما لم تغفره لى قط .

بيكيت : (برفق) قد نسيت .

الملك : كنا مع هذا كالأخوين ! وفى ذلك المساء لم يكن الأمر إلا عبث أطفال من ذلك الولد الكبير الذى راح يصرخ : « إنى أنا الملك ! » ... كنت فى أول الشباب... وكما تعلم جيدا لم أكن أفكر إلا من خلالك .

بيكيت : (برفق ، كما يخاطب الولد الصغير) صل يا هنرى بدلا من الثرثرة !

الملك : (بامتعاض) تستطيع أن تتصور كم أرغب فى الصلاة !

(بيكيت يتوارى فى الظل ويختفى أثناء رد الملك) .

إنى أنظر إليهم من خلال أصابعى وهم يرقبوننى من الأروقة الجانبية ... مهما قلت فما أقبح قومك السكسون ! ... وأسلم نفسى عاريا لهؤلاء الوحوش ، أنا ناعم الجلد ! ... حتى أنت كنت حريا أن تشعر بالخوف ! ثم إنى أشعر بالخزى ، الخزى من هذه المهزلة . لكنى فى حاجة إليهم ... يجب أن أضمهم إلى قضيتى ، ضد ابنى ، الذى يريد أن يلتهم منى مملكتى وأنا حى ... لهذا أجىء لأعقد الصلح مع قديسهم ... ألا ترى أن هذا عجيب ؟ أنت صرت قديسا ، وأنا الملك فى حاجة إلى تلك الجمهرة الملامية الكبيرة التى لم تكن تستطيع حتى الآن إلا أن تزن ثقلها الضخم وهى منحنية تحت الضربات ، والتى تستطيع الآن أن تفعل ما تشاء ... وما نفع الغزوات ؟ . إنهم هم الآن انجلترا ، بحكم كثرتهم ولأنهم يتناسلون كالأرانب ، لتعويض حصاد المذابح ... لكن الثمن ينبغى دائما أن يدفع .... وأنت أيضا من علمنى هذا يا توماس بيكيت ، عندما كنت ما تزال مستشارى .... لقد علمتنى كل شىء .... (يحلم قليلا) آه ! لقد كان ذلك زمن الرخاء ! .... فى بكرة الصباح — صباحنا نحن ،

قرب الظهر ، إذ كنا دائما نذهب إلى الفراش فى وقت متأخر جدا — كنت تدخل حجرتى فى لحظة خروجى من حمامى ، مستريحا ، مبتسما ، خفيفا ، نضراً كما لو كنا لم نقض الليل كله فى السكر والعهر... (بشىء من المرارة) وفى هذا أيضا كنت أقوى منى...

يدخل الوصيف بملاءة بيضاء يغطى بها الملك ويدلكه . نسمع فى الكواليس ، لأول مرة ، الصفير الذى سنسمعه كثيرا ، وهو مارش اسكتلندى مرح وساخر يردده بيكيت .

تتغير الاضاءة ، وما زلنا فى الكتدرائية الخالية ، ثم تأتى لحظة يجذب فيها بيكيت ستارا فاذا هى حجرة الملك . ونبرة حديثهما التى كانت فى البداية بعيدة كنبرة الذكرى تتحول هى أيضا وتغدو أكثر واقعية . وها هو توماس بيكيت فى ملابس النبلاء ، أنيق وشاب وجذاب ، بسترته القصيرة وحذائيه اللذين يرتد طرفاهما إلى الوراء بشكل ظريف ، يدخل نشيطا ويحيى الملك .

توماس : احتراماتى يا مولاى ! ....

الملك : (مشعشعاً) آه ، توماس ! حسبتك لا تزال نائماً .

توماس : بل ركضت بجوادى بعض الوقت إلى رتشموند يا مولاى ، فى الجو برودة تامة .

الملك : (الذى تصطك أسنانه) من يتصور حبك هذا للبرد !

أنت ! (لوصيفه) إدعك أقوى من هذا يا حيوان !

توماس يدفع الوصيف مبتسما ، ويدلك الملك بدلا منه .

الملك : (للوصيف) حسنا ! ضع حطبة فى النار واذهب ! وبعد قليل تلبسنى ثيابى .

توماس : أنا بنفسى يا أميرى سوف ألبسك ثيابك !

يخرج الوصيف .

الملك : لا يوجد غيرك من يحسن تدليكى ... ماذا عساى أصنع بدونك يا توماس ! أنت نبيل فلماذا تلعب دور وصيفى ؟ ... لو أنى طلبت هذا من باروناتى لأشعلوا ضدى حربا أهلية !

توماس : (مبتسما) إنهم واصلون إلى هذا مع الزمن ، عندما يكون الملوك قد فهموا دورهم . أنا خادمك يا أميرى ولا شىء غير هذا . ويستوى عندى أن أساعدك فى الحكم أو أن أدفئك . إنى أحب أن أساعدك .

الملك : (بحركة حنان صغيرة) ياسكسونى الصغير ! ... فى البداية ، عندما أردت أن أقربك إلى ، أتعرف ماذا قالوا لى جميعا ؟ أنك ستستغل قربك منى لتطعننى يوما .

توماس : (الذى يلبسه ثيابه وهو مبتسم) وصدقت هذا ياأميرى ؟

الملك : ل .... لا .... خفت قليلا فى البداية .... أنت تعرف أنى سهل الخوف ! لكن كان لك ذلك المظهر المهذب إلى جانب هؤلاء الأجلاف .... كيف أمكنك أن تتكلم الفرنسية بغير أثر للكنة الانجليزية ؟

توماس : لقد استطاع أهلى أن يحتفظوا بممتلكاتهم بقبولهم
ما يسمونه التعاون مع الملك أبيك .... وأرسلونى
فى صباى إلى فرنسا لآخذ عنها اللهجة الفرنسية الفصيحة .

الملك : فى فرنسا ؟ وليس فى نورمانديا ؟

توماس : (يبتسم أيضا) تلك هى نعرتهم الوطنية الوحيدة :
كانوا يكرهون اللهجة النورماندية .

الملك : (قاطعاً) اللهجة فقط ؟

توماس : (كتوما ، وخفيفا) كان أبى رجلا بالغ الشدة ،
وما كنت لأجرؤ فى حياته على أن أسائله عن عواطفه
الدفينة . وبالطبع لم تتضح الأمور بموته . لقد استطاع
بتعاونه أن يجمع ثروة ضخمة . ولما كان من جهة
أخرى رجلا ذا مبادىء صارمة فانى أتصور أنه رتب
أمره على أن يفعل ذلك على نحو يرضى عنه ضميره ...
لعبة من لعب الشعوذة ينجح فيها ذوو المبادىء فى
فترات الفتن .

الملك : وأنت ؟

توماس : (متظاهرا بعدم فهم السؤال) أنا ، يا أميرى ؟

الملك : (قاصداً أن يظهر فى صوته أثر من ازدراء خفيف ،
لأنه — بالرغم من إعجابه بتوماس أو بسبب ذلك
الاعجاب — يريد أن يسجل بين الحين والحين نقطة
ضده) لعبة الشعوذة ، هل نجحت فيها بسهولة ؟

توماس : (دائم الابتسام) لم تكن المسألة واحدة . أنا كنت
رجلا طائشا ، أليس كذلك ؟ ... وفى الحقيقة

لم تعرض المسألة نفسها بالنسبة لى ... إنى أحب الصيد
وحق الصيد كان وقفاً على النورمانيين ومحاسيبهم ..
إنى أحب الترف والترف كان نورمانديا ... إنى
أحب الحياة ، ولم يكن للسكسون إلا أن يذبحوا ...
وأضيف أنى أعبد الشرف !

الملك : (بدهشةخفيفة) والشرف تصالح هو أيضامع التعاون ؟!

توماس : (فى خفة) أخذت لنفسى الحق فى رفع سيفى فى وجه
أول نبيل نورماندى أراد أن يلمس إحدى شقيقاتى ،
وفى قتله فى نزال فردى ... هذه جزئية صغيرة ، لكن
لها قيمتها .

الملك : (بلؤم خفيف) كان فى وسعك مع هذا أن تذبحه
وتهرب فى الغابات مثل كثيرين ؟

توماس : هذا حل تنقصه الراحة والفعالية الحقيقية . وكانت
أختى فى هذه الحالة عرضة لأن يغتصبها فى الحال
بارون نورماندى آخر ، مثل كل بنات السكسون .
أما اليوم فهى محترمة .

الملك : (حالماً) أنا لا أفهم عدم كراهيتك لنا .... أنا الذى
لم يؤت شجاعة كبيرة ....

توماس : ماذا تعرف عن هذا يا مولاى ؟ إن أحدا ، قبل يوم
موته ، لا يعرف تماما قدر شجاعته ....

الملك : (مستطرداً) ومع ذلك فأنت تعرف أنى لا أحب أن
أقاتل ... على الأقل قتالا شخصياً ... ومع ذلك فلو

أن الفرنسيين ، مثلا ، غزوا نورمانديا فى يوم من الأيام وفعلوا فيها واحداً على مائة مما فعلنا هنا ، فانى أعتقد أنى لم أكن لأقوى على رؤية فرنسى دون أن أستل خنجرى و .... (يصرخ فجأة عند رؤيته لحركة بدرت من توماس) عم تبحث؟

توماس : (مبتسما وهو يخرج مشطه من سترته) مشطى .... (يبدأ فى تصفيف شعر الملك وهو يقول له برفق) ذلك يا مولاى لأن وطنك لم يحتل مائة سنة ... هذا زمن طويل ، وكل شىء مع الحياة ينسى ....

الملك : (أريباً على حين فجأة) لعلك ما كنت لتنسى لو أنك كنت فقيراً !

توماس : (خفيفا وغامضا) ربما ... لكنى غنى ... وخفيف... أتعرف يا مولاى أن أدوات مائدتى الذهبية الجديدة وصلت من فلورنسة ؟ هل سيشرفنى مليكى بالحضور إلى بيتى لتكون أول من يستعملها ؟

الملك : أدوات مائدة ذهبية ! يا لك من مجنون !

توماس : إنى أفتتح بها «موضة جديدة» !

الملك : أنا ملكك وآكل فى أوان فضية !

توماس : يا أميرى أنت تحمل ثقيل الأعباء وليس عندى إلا أعباء مسراتى ... إن ما يضايقنى هو أن استعمالها قد يخدشها ، على ما يبدو .... ليكن ، سنرى ! ... وقد تسلمت أيضاً شوكتين ....

الملك : (بدهشة) شوك ؟

توماس : أجل . هى أداة جديدة صغيرة شيطانية الشكل والاستعمال ... وهى تستعمل فى التقاط اللحم لنقله إلى الفم ، حتى لا تتسخ الأصابع .

الملك : لكن الشوكة تتسخ فى هذه الحالة .

توماس : أجل ، لكنها تغسل .

الملك : والأصابع أيضا تغسل ! إنى لا أرى الفائدة !

توماس : حقا إنه لا توجد فائدة عملية ، لكن فى هذا رقة وذوقاً ... شىء غير نورماندى على الاطلاق !

الملك : (مفتوناً فجأة) لابد أن تطلب لى دستة ! حتى أرى وجوه باروناتى العتاة فى أول مأدبة فى القصر ، عندما أقدمها لهم ! ولا ينبغى أن نقول لهم فيم نفعها ! وكم سنضحك !

توماس : (ضاحكاً) دستة ! رويدك ! إن الشوك باهظة الثمن يا أميرى ولقد حان موعد الذهاب إلى المجلس .

الملك : (ضاحكاً أيضا) لن يفهموا من أمرها شيئاً ! سيصل بهم الأمر إلى أن يتصوروا أنها للقتال ! ستتسلى كالمجانين ! ...

يخرجان . يضحكان وراء الستار الذى انفرج أمامهما عن ديكور الأعمدة نفسه . إنها قاعة المجلس التى يدخلانها دون أن ينقطع ضحكهما .

الملك : (قاصداً العرش) أيها السادة ، فتحت الجلسة ... جمعتكم اليوم لحسم موضوع رفض الاكليروس أن

يفوا بما عليهم من ضريبة التخلف ... وسيلزمنا
أن نتفاهم لمعرفة من يحكم هذه المملكة ، هل هى
الكنيسة (حركة من كبير الأساقفة) بعد قليل يا كبير
الأساقفة ! ... أم أنا ؟ ... لكن ، قبل أن ندخل فى
الجدل ، لنبدأ بالأخبار الطيبة ... لقد قررت أن أعيد
منصب وزير خزانة انجلترا ، حارس الختم ذى الأسود
الثلاثة ، أن أعهد به إلى خادمى الوفى ورعيتى توماس
بيكيت .

توماس : (مندهشاً ، ينهض شاحبا) يا أميرى ! ...

الملك : (مستهزئاً) ماذا هناك يا بيكيت ؟ هل بادرتك الحاجة إلى أن تذهب فتتبول ؟ صحيح أننا أفرطنا فى الشراب الليلة ، نحن الاثنان ! (ينظر إليه مبهورا) أنا مغتبط جداً . لأنى فى هذه المرة نجحت فى مفاجأتك ، أيها السكسونى الصغير ...

توماس : (إحدى ركبتيه على الأرض ، جاداً فجأة) أخشى يا أميرى أن لا أكون أهلا لهذا الدليل على ثقتك ، فأنا صغير السن ولعلى طائش ...

الملك : أنا أيضا صغير السن ... ومعارفك أكثر من معارفنا كلنا ! (للآخرين) لقد درس ، إن كنتم لا تعلمون !.. إن معارفه لا تكاد تصدق ... وإنه لقادر على أن يغلبكم جميعا ، بما فيكم كبير الأساقفة ! ... أما عن طيشه فلا تخدعوا أنفسكم ... إنه يشرب الخمر

صرفاً ، ويجب أن يلهو ، لكن الولد لا ينقطع عن
التفكير ... فى بعض الأحيان يضايقنى إحساسى به
وهو يفكر بالقرب منى ... إنهض يا توماس ؛ إنى
لم أكن أفعل شيئاً بغير نصيحتك ، وكان هذا يحدث
فى السر ، أما الآن فسوف يكون هذا علنيا ، وهذا
هو كل ما فى الأمر (ينفجر ضاحكا ويخرج شيئا
من جيبه ويعطيه لبيكيت) إليك الختم فلا تضيعه ،
فبدونه لا يعود لانجلترا وجود ، ونكون جميعاً
مضطرين للعودة إلى نورمانديا ! والآن لنشتغل .

كبير الأساقفة : (ينهض مشرقاً بالابتسام ، بعد زوال الدهشة الأولى) أرجو أن يؤذن لى بموافقة أميرى فى أن أحيى هنا رئيس شمامستى الشاب العالم . فلقد كنت ، ولى الفخر ، أول من لحظه ورباه...إن وجود واحدمن رجالنا فى هذا المجلس، فهو على نحو ما ابننا الروحى، حاملا لقب وزير خزانة انجلترا الرفيع ، لهو ضمان لكنيسة هذا البلد بأن عهداً جديداً من الوفاق والفهم المتبادل يفتتح أمامنا ، وأن علينا ، بروح من التعاون.. المبنى على الثقة

الملك : (مقاطعاً) إلى آخره إلى آخره ... شكراً يا كبير الأساقفة ! كنت واثقا من أن هذا التعيين سيسركم ، لكن لا تسرفوا فى الاعتمادعلى بيكيت لانجاز أعمالكم ... إنه رجلى (يلتفت نحو بيكيت فى ابتهاج) الحق يا سكسونى الصغير أنى كنت نسيت أنك شماس ...

توماس : (مبتسما) أنا أيضاً نسيت يا أميرى !

الملك : قل لى ! وأنا لا أتكلم عن البنات ، فهذه خطيئة صغيرة ! لكنى أتيح لى فى بعض المواقف أن أرى لك ضربة سيف أعتى مما ينبغى لقسيس ، فكيف توفق بين هذا وتعاليم الكنيسة التى تحرم على القسس أن يريقوا الدم ؟

أسقف أكسفورد : (فى حذر) صديقنا الشاب ليس أكثر من شماس ، ولم ينجز بعد كل طقوس الدخول فى الكهنوت يا صاحب السمو ... إن الكنيسة تعرف بحكمتها أن على فورة الشباب أن تنقضى وأن من المسموح به للشباب ، بحجة حرب مقدسة ...

الملك : (مقاطعا) كل الحروب مقدسة يا أسقف ! أتحداك أن تجد لى محاربا جادا لا تكون السماء فى صفه ، من الناحية النظرية ... وأولى بنا أن نعود إلى خرافنا .

كبير الأساقفة : الراعى مسئول عن رعيته يا بنى

الملك : (نافد الصبر) هذا ما أردت أن أقوله ، غير أنى أيها الأب لا أحب كثيراً الخراف التى تأبى أن يجز صوفها ! ... إن عاداتنا تتطلب أن يؤدى كل مالك أرض ضريبة نقدية تكفى نفقة محارب ، ما لم يتقدم هو نفسه للعرض كامل السلاح والترس على ذراعه ، وفى المهلة المحددة فى أوامر الاستدعاء .

أسقف أكسفورد : لابد من التمييز . يا صاحب السمو !

الملك : ميز كما تشاء ، أما بالنسبة لى فقد اتخذت قرارى : إنى أمد كيسى وأنتظر ! (يتقلب على كرسيه ويسلك أسنانه . يخاطب بيكيت) أنا ميت من الجوع يا توماس ، ألست كذلك ؟ . قل لهم يأتونا بشىء .

توماس يشير إلى حارس فيخرج

كبير الأساقفة : (ينهض بعد فترة) إن المدنى الذى يتهرب من واجبه نحو الدولة وهو مساعدة أميره بالسلاح تجب عليه الضريبة . لا أحد يجادل فى هذا .

الملك : (مستهزئا) وبخاصة رجال الدين !

كبير الأساقفة : (مستمرا) وواجب رجل الدين نحو الدولة هو أن يساند أميره بصلواته وبأعمال التربية والإحسان التى يقوم بها ، وهو لهذا لا يمكن أن يخضع لضريبة مماثلة إلا إذا تملص من تلك الواجبات ...

أسقف أكسفورد : هل رفضنا أن نصلى ؟

الملك : (ينهض غاضباً) أيها السادة ! أتظنون حقاً أنى سأقبل أن يختلس منى أكثر من ثلثى ضريبتى بمثل هذه «اللماضة» ؟ ... إن قسسنا النورمانديين ، فى وقت الغزو ، عندما كان الاغتناء ميسورا ، وأقسم لكم على هذا ، شمروا ثوب الكهنوت ... وبأى جسارة ! بالسيف فى قبضة اليد ، والأرداف على السروج ، ومنذ أول لحظة : «هلم يا أمير ولنلق بكل ما هنا خارج البلد ! هذه إرادة الله ! هذه إرادة الله !» ...

كان علينا أن نكبح جماحهم ... أجل ! وعندما
كانت تعترينا الحاجة إلى قداس صغير لم نكن نجد
عندهم وقتاً لذلك ... كانوا قد نسوا أين تركوا
ثيابهم الكهنوتية ... الكنائس لم تكن مستعدة ...
وكل شيء كان صالحاً كعذر للتأجيل ، خشية أن
تختطف قطعة من الكعكة فى غيابهم !

كبير الأساقفة : لقد ولت هذه الأزمان البطولية واستتب السلام !

الملك : ادفعوا إذن ! إنى لن أبرح مكانى هذا (يلتفت نحو بيكيت) خذ نصيبك قليلا يا وزير الخزانة ، لكان مراتب الشرف تصيبك بالخرس !

بيكيت : هل يؤذن لى أن ألفت سيدى كبير الأساقفة باحترام إلى مسألة ؟

الملك : (فى غمغمة) باحترام ، لكن بحزم ... أنت الآن وزير خزانة !

بيكيت : (هادئا وغير مكترث) انجلترا سفينة .

الملك : (مبتهجاً) آه ! يالها من كلمة جميلة ! سنعاود استعمالها !

بيكيت : فى مخاطر الملاحة ، استطاعت غريزة حب البقاء عند الناس أن تجعلهم يعترفون من قديم الأزل بضرورة وجود ربان واحد فى السفينة ... إن البحارة المتمردين الذين يلقون بربانهم فى اليم ينتهون دائماً ، بعد زمن من الفوضى ، إلى أن يسلموا مصائرهم جسداً وروحاً

إلى واحد منهم ، فيحكمهم ، وقد يكون حكمه
أقسى من ربانهم الغارق !

كبير الأساقفة : سيدى وزير الخزانة ! يا صديقى الشاب ! هناك فعلا قاعدة : الربان هو السيد الوحيد على السفينة بعد الله .

(يرعد فجأة بصوت غير متوقع من هذا الجسد الواهن :) بعد الله !

ويرسم علامة الصليب ، فيقلده كل الأساقفة ، وتهب على المجلس ريح التكفير ، ويتأثر الملك فيرسم هو الآخر علامة الصليب . ويغمغم ، مهموماً بعض الشيء :

الملك : ما من أحد يفكر فى وضع سلطة الله موضع البحث يا كبير الأساقفة .

بيكيت : (الذى بقى هادئاً وحده) إن الله يقود السفينة بأن يوحى بالقرارات إلى الربان . لكنى ما سمعت قط من يقول أنه يعطى أوامره مباشرة للربان .

ينهض جلبرت فوليوت ، أسقف لندن ، وهو رجل صفراوى .

جلبرت فوليوت : وزير خزانتنا الشاب ليس إلا شماساً ، لكنه ينتمى إلى الكنيسة . والسنوات القليلة التى قضاها فى الدنيا وفى ضجيجها لا يمكن أن تكون قد أنسته أن الله يملى مشيئته على البشر من خلال كنيسته المجاهدة ،

وعلى الأخص عن طريق أبينا المقدس البابا والأساقفة ، أولئك الممثلين المؤهلين .

بيكيت : هناك خورى على كل سفينة ، لكنه لا يطلب إليه أن يحدد نصيب البحارة من الطعام أو أن يحدد بحار على ما سمعت ، لا يسعه هو أيضاً أن يكون قد نسى هذا ...

جلبرت فوليوت : (ينتصب ، حاد العواء) لن أسمح لتلميحات شخصية أن تسيء إلى وقار مناقشة لها كل هذه الأهمية ! ... إن وحدة كنيسة انجلترا وشرفها فى الميزان !

الملك : (ببساطة) لا داعى للكلمات الرنانة يا أسقف ! أنت تعرف مثلى أن الأمر ببساطة متعلق بمال الكنيسة وحدها ! ... أنا فى حاجة إلى مال من أجل حربى ، فهل تريد للكنيسة أن تعطينى أم لا ؟

كبير الأساقفة : (حذراً) إن كنيسة انجلترا قد أقرت دائماً أن من واجبها أن تعين أميرها بأقصى قواها فى احتياجاته ....

الملك : ها هى الكلمة الطيبة ! لكنى لا أحب الماضى يا كبير الأساقفة ، فهو زمن مطبوع بكآبة الحنين ... إنى أحب الحاضر ، والمستقبل ... هل ستدفع ؟

كبير الأساقفة : يا صاحب السمو ، إنى هنا لكى أدافع عن الامتيازات التى منحها جدكم المجيد جيوم لكنيسة انجلترا ... أيطاوعك قلبك على أن تمس عمل جدك ؟

الملك : ليرقد فى سلام ! عمله مصون لا يمس ! لكنه حيث هو الآن لم يعد فى حاجة إلى مال ، وأنا الذى لا أزال موجوداً على الأرض ، بكل أسف ، فى حاجة إليه !

جلبرت فوليوت : هى مسألة مبدأ يا صاحب السمو !

الملك : إنى أنفق على جيوش يا أسقف ! طلبت أن يرسل بألف وخمسمائة من المرتزقة الألمان وثلاثة آلاف جندى سويسرى ليحاربوا ملك فرنسا ، ولم يحدث قط أن أحداً دفع حساب السويسريين بالمبادىء !

بكيت : (ينهض فجأة ، قاطعاً) أرى يا صاحب السمو أن من العقيم متابعة حوار لا يسمع كل من المتخاطبين فيه الآخر ... إن القانون والعادة يعطياننا الحق فى وسائل الإجبار ، وسنستخدمها .

جلبرت فوليوت : (شديد الانفعال ، منتصباً) أتجرؤ ، أنت يا من انتزعتك الكنيسة من العدم الذى يمثله جنسك ، على أن تغرس السيف فى صدر أمك الكنيسة ؟

بكيت : لقد أعطانى مولاى ومايكى خاتمه ذا الأسود الثلاثة لكى أحافظ عليه ، وأمى الآن هى انجلترا .

جلبرت فوليوت : (مرغياً ، مضحكاً بعض الشىء) شماس ! شماس بائس رضع من ثدينا ! خائن ! ثعبان صغير ! فاسق ! واش ! سكسونى !

الملك : يا صديقى الصغير ، أدعوك إلى أن تحترم وزير خزانتى وإلا دعوت حراسى .

صوته يتضخم قليلا قرب نهاية عبارته ، فيتق... الحراس .

الملك : (مندهشاً) ها هم أولاء على أية حال ! ... آه ! إنما جاءونى بالتصبيرة ... معذرة سادتى ، لكنى إذا لم آكل قرب الظهر أشعر بقواى تضعف ... وليس للملك الحق فى أن يضعف ، كما لا تجهلون ... قدموا لى هذا فى محرابى ، وبذلك أستطيع أن أصلى بمجرد انتهائى من الأكل ... تعال معى لحظة يا ولدى ...

يخرج ساحباً بيكيت . ينهض الأساقفة الثلاثة ممتعضين . يبتعدون قليلا ، متهامسين ، بنظرات ركنية إلى الناحية التى خرج منها الملك .

جلبرت فوليوت : يجب الرجوع إلى روما ! ... أن تتشدد ! ...

أسقف يورك : سيدى كبير الأساقفة ، إن لك الصدارة فى انجلترا ، وشخصك مصون لا يمس ، وقراراتك فى كل ما يمس الكنيسة هى القانون فى هذا البلد ، وعندك ضد هذا التمرد سلاح : الحرمان .

أسقف أكسفورد : لا ينبغى لنا أن نستخدم هذا الحق إلا مع الحذر الشديد يا سيدى الأسقف المبجل ... إن الكنيسة قد انتصرت دائما على مدى القرون ، لكنها انتصرت

بحذر ! ... لنصبر ... إن غضبات الملك فظيعة ، لكنها لا تستمر طويلا .... إنها نيران القش !

جلبرت فوليوت : سيتكفل الفتى الطموح الذى يضمه بجانبه الآن باذكاء ضرامها ! وأنا مثل أسقف يورك المبجل أعتقد أن طرد هذا الفاسق هو وحده الذى يستطيع أن يجعله عاجزاً .

بيكيت : (يدخل عند هذه الكلمات) سادتى ! لقد قرر الملك أن يؤجل مجلسه ؛ وهو يرى أن ليلة من التأمل ستوحى إلى نيافتكم بحل حكيم وعادل — ويأذن لكم فى أن تقدموا له هذا الحل غداً .

جلبرت فوليوت : (يتهكم بمرارة) إنما هى ببساطة ساعة الصيد !

بيكيت : (يبتسم) نعم ، يا سيدى الأسقف ، حتى لا أخفى عنك شيئا ! ثق أنى شخصيا محزون لهذا الخلاف وللشكل الفظ الذى وصل اليه . لكنى مع هذا لا أعدل عما قلته بوصفى وزير خزانة انجلترا ... كلنا ، علمانيين واكليروس ، ملتزمون للملك بنفس القسم الاقطاعى الذى أديناه له بوصفه مولانا صاحب السيادة ، القسم على أن نحمى له حياته وأعضاءه وكرامته وشرفه ... وأظن أنه ليس فيكم من نسى صيغة ذلك القسم !

كبير الأساقفة : (برفق) لم ننسه ياولدى ، ولا نسينا القسم الآخر الذى أديناه قبل ذلك لله ... أنت شاب وربما كنت ما تزال حائراً ، ومع ذلك فها أنت فى كلمات قليلة

نتخذ قراراً لم يغب عنى معناه ... اسمح لشيخ كبير اقتربت منيته ، ولعله كان فى هذا الجدل المقزز يلدافع عن شىء أكبر مما اعتقدت أنت أنه يدافع عنه ، أن يتمنى لك ، أمنية أب ، أن لا تعرف يوماً مرارة التفكير فى أنك أخطأت . (يمد له خاتمة فيقبله بيكيت) إنى لاباركك ياولدى .

بيكيت : (ينهض بخفة من ركوعه) ولد غير جدير بالرضى يا أبى ! لكن متى يكون المرء جديراً ؟ وجديراً بماذا ؟

يدور حول نفسه دورة نزقة ، ويخرج فى وقاحة صبى ورشاقته .

جلبرت فوليوت : (يثب) هذه الاهانات لمقامكم لا يمكن قبولها ! . إن وقاحة هذا الماكر الصغير ينبغى أن تحطم !

كبير الأساقفة : (مفكراً) لقد كان قريباً منى لزمن طويل ... إنه روح غريب ، لا يمكن إقتناصه ... لاتصدقوا أنه مجرد الفاسق الذى تتم عليه المظاهر ... لقد أتيح لى أن ألاحظه ملياً ، فى مراتع المتعة وفى مواطن الجد ؛ فإذا به فى الحالين يبدو حاضراً كالغائب ... إنه يبحث عن نفسه ...

جلبرت فوليوت : حطمه يامولاى قبل أن يجد نفسه ! أو فإن اكليروس هذا البلد سيدفع الثمن غالباً !

كبير الأساقفة : علينا أن نكون فى غاية اليقظة ... إن دورنا هو أن

نسبر غور القلوب ، ولست واثقاً من أن هذا الطلب هو دائماً عدونا .

يخرج كبير الأساقفة والأساقفة الثلاثة . نسمع الملك يصرخ فى الخارج .

الملك : حسنا يا بنى ، هل رحلوا ؟ أأنت آت للصيد ؟

أشجار تنزل من عقود السقف. ينفتح ستار المخمل الأسود الخلفى على سماء صافية وتتحول الأعمدة إلى أشجار متجردة لغابة فى الشتاء . رنين بوق . وعندما يعود النور الذى كان قد توارى يظهر الملك وبيكيت على جوادين ، وفوق القفاز الجلدى لكل منهما صقر . ونسمع مطراً كالسيل .

الملك : إنه الطوفان ! (يسأل فجأة) هل يسليك هذا ، أنت ، أن تصيد بالصقر ؟

بيكيت : لا أحب أن يقوم لى الغير بطلباتى ... أفضل أن أحس بخنزير وحشى فى طرف حربتى ، وعندما يستدير ويهجم ، تكون هناك لحظة من المواجهة اللذيذة يحس المرء فيها آخر الأمر أنه مسئول عن نفسه .

الملك : ما أعجب مذاق الخطر هذا !... مابالكم جميعا تريدون أن تغامروا بجلدكم بأى ثمن ، وبحجج سخيفة !... أنت فى الواقع من أهل الرق ؛ تنظم الأشعار وتأكل بالشوكة ، وأنت أقرب إلى باروناتى مما تظن .

بيكيت : يجب أن يلعب المرء بحياته لكى يحس أنه يعيش..

الملك : أو يموت ! ... أنت تضحكنى !(يكلم صقره)
إهدأ يا جميلى ! عما قليل ننزع عنك قلنسوتك
لا نفع لك تحت الأشجار .... هناك على أية حال
من يحبون هذا . . . الصيد بالصقر ... الا يرى
الصقور نفسها ! ... إنى لأشعر أننا ندبغ جلد مؤخرتنا
على الخيل منذ ثلاث ساعات لكى نقدم لها
هذه المتعة الملكية .

بيكيت : (يبتسم) هى يامولاى صقور نورماندية ، من الجنس
الراق ، ولها فى ذلك الحق !

الملك : (يسأل فجأة ، ناظراً إلى بيكيت)أتحبنى يابيكيت!

بيكيت : أنا خادمك يا أميرى.

الملك : هل أحببتنى عندما جعلتك وزيراً للخزانة ؟ إنى لأسائل
نفسى أحيانا عما إذا كنت قادراً على الحب ... أتحب
جويندولين ؟

بيكيت : إنها عشيقتى يا أميرى .

الملك : لماذا تضع بطاقات على كل شىء ؟ ألكى تبرر
عواطفك ؟

بيكيت : لأن العالم بدون بطاقات يا أميرى لا يصبح له شكل.

الملك : وهل من المهم أن يكون للعالم شكل ؟

بيكيت : أهمية رئيسية يا أميرى ، وإلا فلن نعرف ماذا نصنع
فيه (أبواق بعيدة) إن المطر يتضاعف يامولاى '

فلنلجأ إلى هذا الكوخ ، هناك .
يرحل ركضا ، وبعد هنيهة من الحيرة يتبعه الملك ركضا وقبضته العالية رافعة صقره ، وهو يصيح :

الملك : بيكيت ! إنك لم تجب عن سؤالى !
يختفى فى الغابة . أبوا ق أخرى . البارونات يمرون على خيل راكضة ، على إثرهما ، ويختفون فى الغابة .
زئير عاصفة وبرق . يظهر على جانب المسرح كوخ — نسمع بيكيت يصيح من جانب المسرح.

بيكيت : هذا ! هل نستطيع أن نأوى الجياد من البلل فى حظيرتك ؟ هل تعرف كيف تدلك حصانا ؟ وانظر أيضاً ما بال الحافر الأمامى الأيمن فى حصان السيد ... إننا سننتظر عندك حتى تهدأ العاصفة .
لحظة ثم يدخل الملك الكوخ متبوعاً بسكسونى مشعر يكرر التحية فى خوف وطاقيته فى يده .

الملك : (داخلا ينفض الماء عن نفسه) ياله من دش! أنا معرض لأن أصاب بالبرد (يعطس) كل هذا فى سبيل تسلية صقور ! (يصرخ فى الرجل ، مغيراً صوته) ماذا تنتظر لكى توقد لنا ناراً ، ياهذا ؟ إننا نموت من البرد عندك ياكلب ! (الرجل جامد من الرعب. الملك بعد أن عطس مرة أخرى ، لبيكيت الذى تبعهما) ماذا ينتظر ؟

بيكيت : الخشب نادر يامولاى . لابد أنه لم يعد عنده من شىء .

الملك : وفى قلب الغابة ؟

بيكيت : ليس لهم الحق إلا فى عيارين من الخشب الميت . وهم إن أخذوا غصناً واحداً زائداً يشنقون .

الملك : (مندهشا) يا سلام ومع ذلك ماأكثر الخشب الميت الذى يعثر عليه فى الغابات . ومهما يكن من شىء فإن هذه المشكلة تعنى وكلائى . (يصرخ فى الرجل) اهرع لتجمع كل ما تستطيع حمله وأوقد لنا ناراً جهنمية . إنك فى هذه المرة لن تشنق يا كلب !

الفلاح المروع لا يجرؤ على إطاعة الأمر . يخاطبه توماس برفق :

بيكيت : اذهب ياولدى — إن الذى يأمرك هو أميرك : ولك إذن الحق .

يخرج الرجل مرتعداً وهو يضاعف تحياته.

الملك : لماذا تدعو هذا العجوز ولدك ؟

بيكيت : يا أميرى ! أما تدعوه أنت كلباً !

الملك : إن هو إلا تعبير ! دائماً دعونا السكسون كلاباً ، وإن كنت مع ذلك لاأدرى لماذا ... كان فى وسعنا أيضاً أن نسميهم السكسون ... لكن أن يكون ولدك هذا النتن العجوز ! (يتشمم حوله) ترى ماذا

يأكلون حتى تكون رائحتهم كريهة إلى هذا الحد ، أهو ورث البهائم ؟

بيكيت : اللفت .

الملك : ماهو اللفت ؟

بيكيت : جذور .

الملك : (متسليا) يأكلون جذوراً ؟

بيكيت : أهل الغابات لا يستطيعون زراعة شىء غيره .

الملك : لماذا لا يذهبون إلى السهل ؟

بيكيت : إنهم يشنقون إذا غادروا منطقتهم .

الملك : آه ! طيب ! لا حظ أن هذا من شأنه أن يبسط الحياة ، أن يعلم المرء أنه سيشنق عند أقل بادرة .. لابد أنهم يلقون على أنفسهم أسئلة كثيرة ... هؤلاء القوم يجهلون سعادتهم ...لكنك مع هذا لم تقل لى لماذا دعوت هذا الرجل ولدك ؟

بيكيت : (بخفة) هو ولدى يا أميرى لأنه فقير وعريان إلى هذا الحد ، ولأنى بالمقارنة إليه بالغ القوة .

الملك : إن نظريتك هذه لتقودنا إلى بعيد .

بيكيت : ثم إنك يا أميرى على نحو محسوس أصغر منى سنا ، ومع ذلك يحدث لك أيضاً أن تدعونى ولدك .

الملك : لا علاقة بين الحالين . ذلك أنى أحبك .

بيكيت : أنت ملكنا . كلنا أولادك بين يديك .

الملك : حتى السكسون ؟

بيكيت : (بخفة ، وهو يخلع قفازية) ستقوم انجلترا ياأميرى يوم يغدو السكسون هم أيضاًأولادك .

الملك : أنت اليوم ممل ... لكأنى أسمع كبير الأساقفة ... وأنا أموت عطشا ... ابحث لعلك واجد ما يشرب ، عند ولدك .. (يأخذ بيكيت فى البحث ، ثم لايلبث أن يغادر الحجرة . ينهض الملك ويبحث هو أيضاً، متأملا الكوخ فى فضول ، لامساً الأشياء بتقزز . وفجأة يلمح بابامسحوراً فى أسفل حائط ، فيفتحه ويمد يده فيخرج منه بنتا مذعورة . ويصرخ) هيه ،توماس ! توماس !

بيكيت : (يرجع) هل وجدت ما يشرب يا أميرى ؟

الملك : (ممسكاً بالفتاة على مدى ذراعه) بل ما يؤكل ! ما قولك فى هذا الشىء بعد تنظيفه ؟

بيكيت : (بارداً) إنها جميلة .

الملك : يفوح منها النتن قليلا لكننا سنغسلها . تأملها . دقيقة الحجم . ماعمرها فى رأيك ، خمس عشرة سنة ، ست عشرة سنة ؟

بيكيت : هذا الشىء يتكلم يامولاى (للبنت ، برفق) ماعمرك؟ الصغيرة تحدق فيهما فى رعب دون أن تجنب.

الملك : ها أنت ترى أنها لا تتكلم (للرجل الذى عادبحطب، والذى يتوقف على العتبة فى فزع) ماعمر ابنتك يا كلب ؟ (الرجل الذى أحيط به يرتعد دون أن

يجيب) هو الآخر أخرس ، ولدك ... هل أنجبته من امرأة صماء ؟ من الغريب حقا عدد الخرس الذين ألقاهم منذ أبرح عتبة قصرى ... إنى أحكم شعباً من الخرس . أتستطيع أن تقول لى لماذا ؟

بيكيت : لأنهم خائفون يا أميرى !

الملك : إنى أفهم هذا . وإنه لشىء حسن . يجب أن تخاف الشعوب . إنهم فى اللحظة التى يتوقفون فيها عن الشعور بالخوف لا تعود لديهم غير فكرة واحدة ، هى أن يكونوا بدورهم مصدر خوف ... وهم يعشقون هذا ، الإيحاء بالخوف ، مثلنا تماماً ... وعندما تتاح لهم إمكانيته ، فانى أقسم لك أنهم يعوضون كل ما فاتهم ، أولادك ! . ألم ترقط ثورة فلاحين ؟ . لقد رأيت وأنا واحدة منها وأنا طفل ،على عهد أبى .. إنها عند رؤيتها لا تسر (ينظر إلى الرجل فى نفاد صبر) تأمل هذا المخلوق ، هو أخرس ومغلق ، لكنه يتحرك وينفث نتن ريحه . وهو موجود فى كل مكان ... (يعاود الإمساك بالبنت التى حاولت أن تبتعد) امكثى هنا يا هذه ! إنى أسألك ما نفع هذا ؟

بيكيت : (مبتسما) هذا ينبش الأرض ويصنع الخبز .

الملك : لكن الإنجليز لا يأكلون من الخبز إلا قليلا ، أمافى بلاط فرنسا فلكم يحشرون منه !

بيكيت : (مبتسما) من الواجب تغذية الجيوش تغذية جيدة، فإن الملك ، بغير جيوش ،...

الملك : (فى دهشة) هذا صحيح ... هناك رابطة ...لابد أن يكون هناك نظام معقول فى كل هذه السخافات، قطعاً أنك سكسونى صغير فيلسوف ...لا أعرف منهجك لكن الأمر سينتهى بك إلى أن تجعل منى رجلا ذكيا ! . أما الشيء الغريب فهو أن تنجب هذه الدمامة بنات بهذا الجمال ! . كيف تفسر هذا ، أنت يا من عندك لكل شيء تفسير ؟

بيكيت : لعل هذا الرجل كان جميلا فى سن العشرين ، قبل أن يفقد أسنانه ويحيا حياة الشعب التى لا يمكن تفسيرها ... لعله نال ليلة حب ... لحظة كان فيها ملكاً هو أيضاً ، ناسياً خوفه . ثم بعدها عادت حياته البائسة فاستأنفت سيرها المألوف ... ولابد أنه نسى تلك اللحظة هو وامرأته ، لكن البذرة كانت قد ألقيت ...

الملك : (حالماً) لك طريقة فى سرد الأمور ... (ينظر إلى البنت) هل تعتقد أنها ستغدو دميمة كالأخريات.

بيكيت : بالتأكد .

الملك : وهل تظل جميلة إذا جعلنا منها عاهرة واحتفظنا بها فى القصر ؟

بيكيت : ربما .

الملك : إذن فهى خدمة نؤديها لها ؟

بيكيت : (ببرود) بغير شك .

(ينتصب الأب ، وتنكمش البنت من الرعب . يدخل الأخ ، معتما ، صامتا ، مهدداً .

الملك : شيء رائع ! أتعرف أنهم يفهمون كل شيء ؟ ومن هذا ؟

بيكيت : (الذى فهم الموقف بلمحة خاطفة) . أخوها .

الملك : كيف عرفت ؟

بيكيت : بغريزتى يا أميرى (يده على خنجره) .

الملك : (صارخاً فجأة) ما بالهم يتفحصوننى ؟ لقد بدأوا يضايقوننى ، فى النهاية ! .. لقد طلبت أن أشرب يا كلب !

الرجل ، مذعوراً ، يثب ويهرب .

بيكيت : ماؤهم لن يكون لذيذاً ، لكن معى فى سرج جوادى باطية من خمر الجنيفر ... تعال ساعدنى يا هذا ، فإن حصانى عصبى .

يأخذ بذراع الأخ بغلظة ويخرج معه إلى الغابة وهو يصفر نشيده باهمال ، ثم فى الحال يهاجمه ويدور عراك صامت قصير . ينتزع منه سكينه . يهرب الغلام إلى الغابة ويتأمل توماس فراره هنيهة وهو ممسك بيده قبل أن يدور حول البيت.

الملك جالس على كرسى المطبخ وساقاه على كرسى

آخر وهو يصفر . وبطرف عصاه يرفع ثوب البنت، ويفحصها بطمأنينة وهو يغمغم .

الملك : كلهم أولادى ! (يطرد خاطراً) إنه يتعبنى ، بيكيت هذا ، بأن علمنى عادة التفكير ... لابد أن هذا مضر بالصحة (ينهض لبيكيت الذى دخل) والآن؟ أين الماء المنشود ؟ لقد طال الأمر !

بيكيت : (الذى يسبق الرجل) ها هو ذا يامولاى ، لكن إليك الخمر ، لأن الماء عكر .

الملك : إشرب معى (يلحظ يد بيكيت المغطاة بقماش ملوث بالدم) ما بك ؟ هل جرحت ؟

بيكيت : (يخفى يده) حصانى قطعا عصبى يا أميرى ويفزعه أن يلمس أحد سرجه ... عضنى ...

الملك : (ينفجر بضحكة كبيرة مبتهجة) آه ! آه ! آه ! ما أغرب هذا ! ما أغربها نكتة ! ... حضرته يفوق الكل فى ركوب الخيل ، حضرته لا يجد أبداً الحصان الشرس الذى يناسبه ، حضرته يجعلنا جميعاً مضحكين فى المضمار ببهلوانياته ، لكنه عندما يريد أن يأخذ شيئا من سرجه يترك يده للعض ، مثل أى وصيف ! (يكاد يكون راضياً فى غضبه ، لكن نظرته تزخر فجأة بالحنان) أنت شاحب أيها السكسونى الصغير ... لماذا أحبك ؟ ... هذا عجيب ، إنى لا يسرنى أن يمسك أذى ، أنت ... أرنى يدك ... إن عضة الحصان

سيئة ... سأضع لك خمراً على الجرح .

يكبت : (يسحب يده بحدة) فعلت هذا بنفسى يا أميرى ، والمسألة هينة .

الملك : فلماذا أنت شاحب كل هذا الشحوب ؟ أرنى .

يكبت : (بارداً فجأة) الجرح دميم وأنت تعرف أنك لاتحب رؤية الدم .

الملك : (يتراجع قليلا ثم يهتف راضياً) كل هذا لكى تأتينى بشراب ! جرحت فى خدمة الملك !... سنقول للآخرين انك حميتنى من وحش وسأقدم لك هدية جميلة هذا المساء . ماهى الهدية التى تسعدك؟

يكبت : (برفق) هذه البنت (ويضيف بعد هنيهة) إنها تعجبنى .

الملك : (مكفهراً . بعد سكتة) أنت بهذا تضايقنى لأنها تعجبنى أنا أيضاً ... وأنا فى هذه الناحية لاأعرف صديقاً ! (سكتة أخرى ، ويأخذ وجهه سمة ماكرة) ليكن ! لكن على قاعدة « واحدة بواحدة ».. هل ستتذكر هذا ؟

يكبت : أجل يا أميرى.

الملك : واحدة بواحدة ، فهل أعطيتنى كلمة رجل شريف؟

يكبت : أجل يا أميرى .

الملك : (مفرغاً كأسه . نشيطاً فجأة) اتفقنا ! هى لك . هل نأخذها أم نبعث بمن يأخذها ؟

بيكيت : سأبعث جنديين لأخذها ، فلقد لحق بنا الجنود.

تكون كوكبة من الفرسان المسلحين قد وصلت فعلا أمام الكوخ ، خلال نهاية المشهد.

الملك : (للرجل) إغسل ابنتك يا كلب واقتل لها قملها ، فإنها ذاهبة إلى القصر ... إنها للسيد ، وهو سكسونى مثلك ... أتعشم أن تكون راضياً ؟ (لتوماس وهو يخرج) أعطه قطعة ذهب ، فانى أحس هذا الصباح أنى طيب !

يخرج ، فينظر الرجل المذعور إلى بيكيت.

بيكيت : لن يأتى أحد ليأخذ ابنتك . وعليك فى المستقبل أن تحسن إخفاءها . وقل لابنك أن ينضم إلى الآخرين فى الغابة ، فهى الآن أكثر له أمناً ... خذ !

يقذف إليه بكيس ويخرج . عندما يكون قد خرج يلقى الرجل بنفسه على الكيس ويلتقطه ، ثم يبصق فى حقد.

الرجل : مت ؛ لتكن أول من يموت يا خنزير !

البنت : (فجأة) ماكان أجمله ، هذا ! هل يأخذنى حقاً إلى القصر ؟

الرجل : يا داعرة ! يا متاع النورمانديين !

يلقى بنفسه فوقها وينهال عليها ضرباً . ولقد رحل الملك وبيكيت والبارونات راكضين بالخيل على رنين الأبواق . الكوخ والأشجار الخلفية تنسحب،

نحن فى قصر بيكيت ، ولقد دفع الخدم إلى المسرح بفراش منخفض ووسائد ومقاعد . وفى الخلفية ، بين عمودين ، ينفرج ستار نرى من خلاله نهاية مأدبة ، على هيئة ظلال ، ونسمع أغنيات وضحكات. على المسرح جويندولين مقعية على فراش منخفض وهى تعزف برفق على آلة موسيقية قديمة ذات أوتار. يفتح الستار ويظهر بيكيت الذى يتجه نحو جويندولين بينما تستمر المأدبة وضجة الضحك فى الخلفية ، تقطعها أغان غليظة مبهمة.

جويندولين : (تتوقف لحظة عن العزف) ألا يزالون يأكلون ؟

بيكيت : أجل ، يتمتعون بخاصية امتصاص تفوق التصور !

جويندولين : (برفق ، معاودة العزف) كيف يسع مولاى أن يعيش كل أيامه وشطراً كبيراً من لياليه مع مثل هذه المخلوقات ؟

بيكيت : (وقد أقعى عند قدميها يلاطفها) يا قطتى الصغيرة ، إن مولاك ليشعر بملل أكبر وهو مع علماء الاكليروس يناقشون موضوع جنس الملائكة وهل هم أناث أم ذكور !... هم أيضاً أبعد عن الفهم السليم للأمور ، بعد هؤلاء الأجلاف !

جويندولين : (برفق ، مستأنفة العزف) إننى لا أفهم دائماً كل ما يتعطف مولاى بقوله لى ... لكن ماأعرفه هوأن الوقت يكون متأخراً جداً عندما يفرغ لى مولاى !

بيكيت : (يلاطفها) ليس أحب إلى من أن أعود إليك ... إن الجمال هو أحد الأشياء النادرة التى لا تثير الشك فى الله .

جويندولين : إن أنا إلا أسيرة حرب لمولاى يملكها كلها ، وهذه هى مشيئة الله ، مادام قد نصر النورمانديين على شعبى ... ولو أن الغاليين هم الذين انتصروا على شعبى .. لتزوجت أمام الله رجلا من جنسى فى قصر أبى ، لكن الله لم يشأ هذا .

بيكيت : (برفق) هى حكمة كأى حكمة أخرى يا قطتى الصغيرة ، لكن لما كنت أنتمى إلى جنس مهزوم أنا الآخر ، فإنى أشعر أن الله مرتبك قليلا ... زيدينى عزفاً ...

جويندولين : (تعاود العزف . تقول فجأة) أنا أكذب . أنت مولاى بلا إله . ولو أن الغاليين انتصروا لو سعك فى تلك الحالة أيضاً أن تسرقنى من قصر أبى ، ولكنت قد تبعتك (تقول هذا بجد ، فينهض بيكيت فجأة ويبتعد . ترفع نحوه عينين قلقتين ، متوقفة عن العزف) هل أسأت القول ؟ ما بال مولاى ؟

بيكيت : (مغلقاً) لا شىء . قلت لك من قبل انى لا أحب أن يحبنى أحد .

ينفرج الستار .

يظهر الملك .

الملك : (بمل قليلا) حسناً ياولدى ، أتتركنا ؟ أتعرف أن الأمر قد وقع ؟ لقد فهموا ! ... إنهم يتقاتلون بشوكك ! لقد انتهوا إلى اكتشاف أنها تستخدم فى خزق العيون ... وهى فى نظرهم بارعة الشكل ... إذهب ياولدى ، والا كسروها لك (بيكيت يمر وراء الستار لتهدئه الآخرين . نسمعه يصرخ) سادتى ! سادتى ! كلا ! إنها ليست خناجر صغيرة .. أؤكد لكم ... إنما تستخدم فى التقاط اللحم ... إليكم ... سأريكم هذا مرة أخرى ...

انفجارات ضحك ضخمة وراء الستار . الملك يهبط نحو جويندولين وهو يتفحصها .

الملك : أهو أنت التى كنت تعزفين هكذا ، بينما كنا تأكل ؟

جويندولين : (متورطة فى تحية) أجل يامولاى .

الملك : قطعا أن مواهبك عديدة ... انهضى .

ينهضها ملاطفاً إياها قليلا وهو يرفعها ، فتنأى عنه متضايقة .

الملك : (بابتسامة شريرة) أيخيفك هذا ، يا قلبى الصغير؟ سرعان ما ينتظم كل شىء (يعود إلى الستار) هيه ! بيكيت ! كفى نهشا يا آبائى الصغار ! تعالوا اسمعوا قليلا من الموسيقى ... بعد إرضاء الكرش تطيب تغذية الروح ! ... إعزفى يا هذه (يدخل بيكيت والبارونات الأربعة ، محتقنين ، وتستعيد جويند ولين

الهتها الموسيقية . الملك يشرع على السرير المتفقر وراءها . ويفك البارونات أحزمتهم وهم يتهلون، ويتخذون مجالسهم فى المقاعد التى لن يلبثوا أن يغطوا فى النوم عليها . يظل بيكيت واقفاً) قل لها تغنى لنا شيئا حزينا .. أحب الموسيقى الحزينه قليلا بعد العشاء ، فانها تساعد على الهضم (فواق قصير) ما أجود الأكل عندك ياتوماس من أين سرقته، طباخك؟

بيكيت : اشتريته يا أميرى . إنه فرنسى.

الملك : آه ؟ ألا تخشى أن يدس لك السم ؟ . كم يساوى طباخ فرنسى ؟

بيكيت : الجيد مثل هذا يساوى بالتقريب ثمن حصان يامولاى.

الملك : (مخلصاً فى شعوره بالاستهجان) يا للعار ! لم تعد هناك أخلاق ! لا يوجد إنسان يساوى حصانا !... لو أنى قلت لك : (واحدة بواحدة » — أتذكر ؟ وطلبته منك ، فهل تعطيه لى ؟

بيكيت : بكل تأكيد يا أميرى .

الملك : (تبدر منه ابتسامة وهو يلاطف جويندولين برفق) . لكنى لا أسألك إياه ... أنا لا أريد أن آكل جيداً فى كل الأيام ، فإن هذا يقلل من شأن الإنسان (فواق آخر) هاتى شيئاً أكثر حزناً ، أكثر حزناً يا عجلى.. لحم هذا الغزال لا يريد أن يهضم ... إجعلها تعزف

المرثية التى قيلت فى أمك يا بيكيت ... إنها نغمتى المفضلة .

بيكت : (حازماً فجأة) أنا لا أحب أن تغنى هذه المرثية يا أميرى .

الملك : لماذا ؟ أتخجل من كونك ابن امرأة من الشرق ؟ إلى هذا يرجع نصف جاذبيتك يا مغفل ! لابد من سبب لكونك أكثر تمدنا منا جميعا ... إنى أنا أحبها تلك الأغنية (جويندولين، حائرة ، تنظر نحو بيكيت . صمت قصير . الملك يقول فجأة ، بارداً) هذا أمر ، أيها السكسونى الصغير .

بيكت : (لجويندولين، وهو مغلق) غنى ! (تقدم ببضع نغمات ، بينما يستريح الملك فى جلسته ملتصقاً بها ، وهو يتجشأ على راحته) . وتبدأ :

جويندولين : (مغنية) :

مولانا الجميل جلبرت
ذهب إلى الحرب
ذات صباح جميل
ليخلص قلب إلهنا
من قبضة أهل المشرق

❊ ❊ ❊

أسفاه ! أسفاه ! إن قلبى مثقل
لأنى بلا حب ...

أسفاه ! أسفاه ! إن قلبى مثقل
طول النهار !

الملك : (مغنيا) طول النهار ! ... وبعد ؟

جويندولين : (مغنية) :

وخلال المعركة
بالسيف وبالساعد
مزق المغاربة إرباً
لكنه أخذ غدراً
من فوق فرسه الشهباء
وهوى عند المساء

* * *

أسفاة ! أسفاه ! لكم هو مثقل قلبى
لأنى بلا حب ...
أسفاه ! أسفاه ! لكم هو مثقل قلبى
طول النهار

* * *

جريحاً فى رأسه
مأسوراً كحيوان
أخذ جلبرت الجميل
إلى سوق الجزائر
مكبلا بالسلاسل
لكى يباع ....

الملك : (مغنياً وهو يلمسها بملاطفاته) طول النهار ...

جويندولين : ومشرقية جميلة
بنت الباشا
عشقته حباً
وعاهدته على الوفاء
وأن تكون امرأته
وأن تحبه إلى الأبد

* * *

أسفاه ! أسفاه ! لكم هو مثقل قلبى
لأنى بلا حب ...
أسفاه ! أسفاه ! لكم هو مثقل قلبى
طول النهار ...

الملك : (مقاطعاً إياها) أما أنا فإن هذه الحكاية تنتزع منى الدموع يا ولدى ! ... إن لى مظهر رجل قاس ، مع أنى رقيق ... ولا أحد يستطيع أن يغير نفسه ... إنى لأسائل نفسى لماذا لا تحب أن يغنيها أحد ، هذه الأغنية ؟ ... إنه لشىء رائع أن يكون المرء ابن حب ! . إنى أنا عندما أرى وجهى رفيعى المقام ، أبى وأمى أرتعد عندما أفكر فيما عساه قد حدث بينهما ! ... وإنه لشىء رائع أن تكون أمك قد أعانت أباك على الهرب وجاءت على إثره إلى لندن ، وهى تحملك فى بطنها ... غنى لنا النهاية يا هذه ، فانى أعبد النهاية .

جويندولين : (مختتمة فى عذوبة) :

عندما طلب من قداسة الأسقف

قسيساً ليعمدها
وجعل منها زوجته
ووهبها روحه
كى يحبها مدى الدهر

* * *

نشوان ! نشوان ! قلبى طروب !
لأنه مفعم بالحب ...
نشوان ! نشوان ! قلبى طروب !
لأنى محبوب إلى الأبد ...

الملك : (حالماً) وهل أحبها إلى الأبد ؟ ألا تقول الأغ
هذا ؟

بيكيت : لا يا أميرى .

الملك : (الذى نهض حزيناً) هذا عجيب ... هذه النهاية السعيدة هى التى تحزننى ، أنا ... أتؤمن أنت به ، الحب ؟

بيكيت : (محتفظاً ببروده) أجل يا أميرى ، أومن بحب أبى لأمى .

(يكون الملك قد قصد الباروتات الأربعة الذين غلبهم النوم على مقاعدهم فهم يشخرون الآن) .

الملك : (يركلهم عند مروره) نام الأجلاف ! هذه هى طريقتهم ، هم ، فى التأثر ! أتعرف يا سكسونى الصغير ، هناك أيام أشعر فيها أنه لا وجود للحساسية

فى إنجلترا إلا عندى وعندك ... نحن نأكل بشوك ولنا عواطف فائقة التميز ، ولعلك جاعل منى رجلا آخر على نحو ما ... أما ما ينبغى عليك أن تعثر لى عليه الآن ، لو كنت تحبنى ، فهى بنت تساعدنى على التمدن ، فلقد شبعت من العاهرات (عاد إلى جويندولين ليلاطفها قليلا ، ويقول فجأة) « واحدة بواحدة » أتذكر ؟

بيكيت : (شديد الشحوب . بعد فترة) أنا خادمك يا أميرى وكل ما أملك هو لك ، لكنك تعطفت فقلت لى إنى صديقك أيضاً .

الملك : وهذا فعلا مما يحدث بين الأصدقاء ! (سكتة . يبتسم ابتسامة شريرة دون أن يقطع لمساته لجويندولين المصعوقة من الرعب) هل أنت متمسك بها ؟ هل يسعك أن تتمسك بشىء ، أنت ؟ ... قلها لى إن كنت متمسكاً بها ! (لا يجيب بيكيت ، فيبتسم الملك) أنت عاجز عن الكذب ، فانى أعرفك ... لا لأنك تخاف من الكذب — فانى أعتقد أنك الرجل الوحيد فيمن أعرف الذى لا يخاف من أى شىء ، حتى من السماء — إنما هى نفسك التى تعافه ، لأنه يبدو لك ذميما ... إن كل ما يبدو أخلاقياً عندك ليس بكل بساطة إلا إحساساً جمالياً ... أصحيح هذا أم غير صحيح ؟

بيكيت : هو صحيح يا مولاى .

الملك : أنا لا أغش عندما أطلبها منك ؟ لقد قلت لك واحدة بواحدة وسألتك كلمة شرف الرجل النبيل ؟

بيكيت : (ثلجياً) وقد أعطيتها لك ، الكلمة .

(صمت . كلاهما جامد . الملك ينظر إلى بيكيت الذى لا ينظر إليه ، بابتسامة شريرة . الملك يتحرك فجأة) .

الملك : حسناً سأعود إلى البيت . بى رغبة فى النوم مبكراً الليلة . ظريفة سهرتك يا بيكيت ! لا يوجد غيرك فى انجلترا بكل تأكيد من يعرف كيف يعامل أصدقاءه بلمسة ملكية (يذهب فيركل البارونات النائمين) ساعدنى فى إيقاظ هؤلاء الخنازير وناد حرامى (البارونات يستيقظون بتنهدات وهمهمات ، والملك يصرخ فيهم وهو يدفعهم) العودة إلى البيوت يابارونات ! العودة إلى البيوت ! ... أعرف أنكم من هواة الموسيقى الجيدة ، لكن ما باليد حيلة ، ولا يسعنا أن نستمع إلى الموسيقى طول الليل ! ... ومن شأن الليالى الطيبة أن تنتهى فى الفراش ، أليس كذلك يا بيكيت؟

بيكيت : (متصلباً) أستميح أميرى فى لحظة قصيرة .

الملك : حسناً ! حسناً ! لست فظاً ! أنتظر كما فى محفتى ، كلاكما ، وستقدم لى تحيتك تحت .

(يخرج . يتبعه البارونات . يظل بيكيت جامداً لحظة تحت نظرة جويندولين التى لم تفارقه ، ثم يقول آخر الأمر برفق) :

بيكت : سيكون عليك أن تتبعيه يا جويندولين .

جويندولين : (تسأل برزانة) هل كان مولاى قد وعده بى ؟

بيكت : كنت قد أعطيت كلمة الشرف على أن أعطيه ما يطلبه منى ، ولم أكن أظن أنك أنت ما سيطلب !

جويندولين : (تسأل أيضاً) فاذا ردنى غداً يا مولاى ، فهل تسترّدنى ؟

بيكت : (حازماً) لا .

جويندولين : هل يجب على أن أطلب من البنات وضع ملابسى فى الصندوق ؟

بيكت : سيبعث فى طلبه غداً ... انزلى ... لا يصح أن يترك الملك ينتظر ... قولى له إنى أحييه .

جويندولين : (تضع آلتها على الفراش) أترك قيثارتى لمولاى ، فهو يكاد يعرف الآن كيف يعزف عليها (تسأل ببساطة) مولاى لا يحب شيئا فى الدنيا ، أليس كذلك ؟

بيكت : (حازماً) لا .

جويندولين : (تقترب منه وتقول له بعذوبة) أنت من جنس مهزوم أنت أيضا ، لكنك من فرط ما ذقت شهد الحياة نسيت أن شيئا ما لا يزال باقيا لأولئك الذين أخذ منهم كل شىء !

بيكيت : (مغلقا) أجل ... لابد أنى نسيته ... الشرف ينقضى ... إذهبى ....

(تخرج جويندولين . بيكيت لا يتحرك . ثم يقصد السرير ويتناول القيثارة وينظر إليها ثم يلقى بها فجأة . يرفع غطاء الفرو ، ويبدأ فى خلع سترته . يدخل حارس يجر بنت الغابة السكسونية ويقذف بها وسط الحجرة ... يظهر الملك منشرحاً) .

الملك : ولدى ! كنت قد نسيتها ! انظر كم أنت دائماً مهمل ! من حسن الحظ أنى أنا أفكر فى كل شىء ... ويبدو أنه كان من اللازم لأخذها قتل الأب والأخ الكبير أو شىء كهذا ... على كل حال إليك بها ... ها أنت ترى أنى صديقك وأنك مخطىء فى عدم حبك لى ... لقد قلت لى إنها تعجبك ، وما نسيت أنا قولك ... طابت ليلتك يا ولدى !

(يخرج متبوعاً بالحراس . البنت التى لا تزال فريسة للفزع تنظر إلى بيكيت الذى لم يتحرك ... وعندما تتعرف إليه تنهض وتبتسم له ... وقت طويل ، ثم تسأل ، بدلال لئيم) :

البنت : هل يجب أن أخلع ملابسى يا مولاى ؟

بيكيت : (الذى لم يتحرك) بالتأكيد (البنت تبدأ فى خلع ملابسها وبيكيت ينظر إليها بعين باردة وهو يصفر — شارد الذهن — نغمات من نشيده المألوف . ثم يتوقف فجأة ويتجه إليها ، وبغلظة يتناول البنت المفزوعة نصف العارية من كتفيها ويسألها) أرجو أن يكون لك أنت روح جميل وأن يكون كل هذا فى نظرك خسيساً ؟

(يظهر وصيف صامت يستبد به الفزع ويتوقف على العتبة ... وقبل أن يقوى على الكلام يدخل الملك مهرولا ... يتوقف ويقول فى اكتئاب) :

الملك : لم أجد لها متعة يا توماس ... لقد تركت نفسها ترقد كالميتة على المحفة ، ثم ، فجأة ، انتزعت سكينا صغيرة من حيث لا أدرى ، وإذا بالدم فى كل مكان ... كان شيئاً مقززاً (بيكيت ترك الفتاة . الملك يضيف ، تائهاً) كان فى وسعها أيضاً أن تقتلنى ، أنا ! (صمت . يقول فجأة) اطرد هذه البنت . أريد أن أنام فى حجرتك هذا المساء . أنا خائف . (بيكيت يشير إلى الوصيف الذى يخرج البنت نصف عارية . الملك يلقى بنفسه على الفراش وهو بملابسه ، بتنهدة حيوانية) خذ نصف السرير .

بيكيت : سأنام على الأرض يا أميرى .

الملك : كلا ... تعال بالقرب منى ... لا أريد أن أكون وحيداً هذا المساء (ينظر إليه ويغمغم) أنت تكرهنى ، حتى الثقة فيك لن تعاودنى !

بيكيت : لقد أعطيتنى خاتمك لأحفظه يا أميرى ، وأسود

انجلترا الثلاثة المحفورة على الخاتم تحرسنى أنا أيضاً.
(يذهب لينفخ الشموع، ما عدا واحدة منها. يكاد يسود الظلام).

الملك : (صوته، فى الظل، يتداعى للنوم) لن أعرف أبدا فيم تفكر ....
(بيكيت الذى ألقى غطاء الفرو على الملك وتمدد بالقرب منه على وسائد، يقول له برفق):

بيكيت : اقترب الفجر يا أميرى وينبغى أن ننام ... إن الغد هو موعد رحيلنا إلى القارة، وإن هى إلا ثمانية أيام حتى نكون أمام جيش ملك فرنسا، وسيكون لنا فى النهاية إجابات بسيطة على كل الأسئلة ...
(يتمدد قريباً من الملك. يقع صمت يتعاظم خلاله شيئا فشيئا شخير الملك. لكنه فجأة يئن ويأخذ فى الصراخ وهو يضطرب اضطراباً مبهماً).

الملك : (فى نومه) إنهم يطاردوننى ! يطاردوننى ! إنهم مسلحون ! ... أوقفهم ! أوقفهم !
يرتكز بيكيت على كوعه ويلمس الملك فيستيقظ بصرخة حيوانية

بيكيت : يا أميرى ... يا أميرى ... نم فى سلام، إنى هنا !

الملك : آه ! أنت هنا يا توماس ؟ ... إنهم يطاردوننى ...
(يستدير ويعود إلى النوم متنهداً. يعود شخيره شيئا فشيئاً، هادئاً. يظل بيكيت مضطجعا على كوعه).

(يعيد تغطية الملك بحركة تكاد تكون حنوناً).

بيكيت : يا أميرى ... لكم كان كل شىء يكون سهلا لو أنك كنت أميرى الحقيقى، لو أنك كنت من جنسى ... بأى حنان كنت أحوطك، فى عالم منظم يا أميرى، يكون كل واحد فيه رجلا لرجل، من أسفل إلى أعلى، مرتبطاً بقسم، ولا يعود لديه ما يسائل عنه نفسه على الاطلاق (سكتة. يتعاظم شخير الملك. يتنهد بيكيت ويقول بابتسامة صغيرة) لكنى وأنا دخيل مرتين – دخلت فى الصف بالغش ... نم على أية حال يا أميرى، إن بيكيت سيخدمك طالما بقى مضطراً إلى ارتجال سعادته ... أما إذا وجدها يوماً، ... (سكتة. يسأل :) لكن، أين شرف بيكيت ؟
(يعود إلى الرقاد متنهداً، بجوار الملك. شخير الملك يشتد، والشمعة تنكمش، ويزداد انخفاض النو).

ينزل الستار

الفصل الثانى

يرتفع الستار من نفس ديكور الاعمدة المتساندة الذى يمثل الآن غابة فى فرنسا تنتصب فيها خيمة الملك ، التى لا تزال مقفلة . ديدبان على البعد . والوقت فى بكرة الصباح . البارونات الاربعة ، متربعين حول نار معسكر ، يغيرون ريقهم فى صمت . بعد وقت يسال الاول (استجابات الاربعة بطيئة)

البارون الأول : من يكون بيكيت هذا ؟

البارون الثانى : (بدهشة خفيفة) إنه وزير خزانة انجلترا .

البارون الأول : فاهم . لكن من يكون على وجه التحديد ؟

البارون الثانى : حسناً ! هو وزير خزانة انجلترا ! ووزير خزانة انجلترا هو وزير خزانة انجلترا . لا أرى مجالا لسؤال حول هذا الموضوع .

البارون الأول : أنت لا تفهم . إن افتراض أن يكون وزير خزانة انجلترا رجلا آخر ... أنا مثلا ...

البارون الثانى : إنه افتراض غبى .

البارون الأول : إنه افتراض . وإذن لكنت وزير خزانة انجلترا دون أن أكون بيكيت . أتفهم هذا ؟

البارون الثانى : (مستريباً) أجل .

البارون الأول : أستطيع إذن أن أطرح السؤال على نفسى .

البارون الثانى : أى سؤال ؟

البارون الأول : أن أعرف من يكون بيكيت هذا .

البارون الثانى : من يكون بيكيت هذا كيف ؟ إنه وزير خزانة انجلترا .

البارون الأول : أجل ، لكنى أطرح على نفسى السؤال لمعرفة حقيقته كانسان .

البارون الثانى : (ينظر إليه ، مجملا فى حزن) هل تشكو شيئا فى مكان ما ؟ !

البارون الأول : لماذا ؟

البارون الثانى : لأن بارونا يطرح على نفسه أسئلة هو بارون مريض . ما هو سيفك ؟

البارون الأول : سيفى ؟

البارون الثانى : أجل .

البارون الأول : (يده على مقبض السيف) سيفى هو سيفى ! ومن لديه فى هذا ريبة ...

البارون الثانى : حسناً ! قد أجبت إجابة سيد نبيل ... ولسنا هنا ، نحن ، لنطرح على أنفسنا أسئلة ، وإنما نحن هنا لنجيب .

البارون الأول : تماماً . أجبنى إذن .

البارون الثانى : لنجيب الأوامر لا الأسئلة ! ... إنهم فى الجيش لا يسألونك أن تفكر ... وعندما تكون أمام محارب فرنسى ، هل تطرح على نفسك أسئلة ؟

البارون الأول : لا .

البارون الثانى : وهو .

البارون الأول : ولا هو .

البارون الثانى : إن ما يفعله كل منكما هو أن يضرب ، وهذا هو كل شيء . أما إن رحتم تتبادلون الأسئلة كما تفعل النساء ، فلن يبقى هناك إلا أن تصف الكراسى فى ميدان القتال ! قل لنفسك إن كل الأسئلة قد طرحها من قبل من هم أذكى منك ، وفى المقام الأعلى .

البارون الأول : (متكدرا) أردت أن أقول إنى لا أحبه .

البارون الثانى : ما كان عليك إلا أن تقول هذا ! ... كنا فهمناك ! ... إن هذا من حقك ... وأنا أيضاً لا أحبه (ويضيف كما لو كان هذا مفروغاً منه) أولا ، لأنه سكسونى .

البارون الأول : أولا !

البارون الثالث : هناك شيء لا يسعنا أن نزعمه ، هو أنه لا يجيد القتال... أمس ، عندما أحيط بالملك وقتل تابعه ، شق بيكيت لنفسه طريقاً خلال الفرنسيين واسترد له رايته وجلب أنظار الجميع إليه .

البارون الأول : اتفقنا . هو يجيد القتال !

البارون الثالث : (للثانى) ألا يجيد القتال ؟

البارون الثانى : (فى عناد) بل يجيده . لكنه سكسونى .

البارون الأول : (للرابع ، الذى لم يقل شيئاً حتى الآن) وأنت ، ما رأيك يا ريجنولت ؟

البارون الرابع : (رابط الجأش ، مبتلعاً لقمته برزانة) أنا أنتظر .

البارون الأول : تنتظر ماذا ؟

البارون الرابع : أن يكشف حقيقته ... هناك طرائد من هذا النوع ، تتبع طول النهار فى الغابة صوتها ورائحتها وأثرها ، ولا يفيدك فى شيء أن تندفع شاهراً حربتك ... إن هذا كفيل أن يفقدك كل شيء ، لأنك لا تعرف على وجه التحديد أى نوع من الحيوان تعالج ... يجب أن تنتظر .

البارون الأول : ماذا ؟

البارون الرابع : أن يكشف حقيقته ... والحيوان ، إن كنت صبورا ، ينتهى به الأمر دائماً إلى أن يظهر ... الحيوان يعرف عن هذا أكثر من الانسان دائما ، لكن عند الانسان شيئا لا ينعم به الحيوان : ذلك أنه يعرف كيف ينتظر ... وأنا ، فيما يتعلق ببيكيت ، أنتظر .

البارون الأول : ماذا ؟

البارون الرابع : أن يكشف حقيقته ، أن يخرج من عرينه . (يستأنف الأكل) ويومذاك سنعرف من يكون .

نسمع الصفير بنشيد بيكيت الصفير فى الكواليس .

بيكيت : (يدخل ، مسلحاً) أحييكم أيها السادة ! (البارونات الأربعة ينهضون فى أدب ويؤدون التحية العسكرية . يسأل بيكيت) ألا يزال الملك نائما ؟

البارون الأول : (متوتراً) لم يناد .

بيكيت : هل جاء رئيس الجند ليعرض كشف الخسائر ؟

البارون الأول : كلا .

بيكيت : لماذا ؟

البارون الثانى : (بفظاظة) لأنه هو نفسه جزء من الخسائر .

بيكيت : آه ؟

البارون الأول : لم أكن بعيداً عنه عندما وقع الأمر ... ضربة مقلاع أفقدته توازنه ، وما ان سقط على الأرض حتى تكفلت به قناصة المشاة .

بيكيت : مسكين يا بومونت ! لكم كان مزهوا بدرعه الحديد !

البارون الثانى : لابد أنه كان به ثقب صغير . أسالوا دمه . على الأرض . الفرنسيون الخنازير !

بيكيت : (باشارة خفيفة) هكذا الحرب .

البارون الأول : الحرب رياضة مثل أى رياضة أخرى ... لها قواعد ... فى الماضى كانوا يأسرونك على اساس الفدية ... فارس مقابل فارس ... هكذا فليكن القتال !

بيكيت : (يبتسم) منذ أعطوا الخناجر للمشاة ودفعوهم فى مواجهة الخيل بدون أى حماية شخصية ، صاروا يميلون إلى البحث عن العيوب فى دروع الفرسان الذين يفارقهم حذرهم فيهبطون عن الخيل ... إنه لشىء دنىء ، لكنى أفهمه .

البارون الأول : إذا بدأنا نفهم المشاة فانها لن تصبح حروباً ، بل مذابح !

بيكت : إن العالم يسعى بكل تأكيد نحو المذابح يا بارون . إن درس هذه المعركة التى كلفتنا غالياً هو أن علينا أن نشكل نحن أيضا كتائب من باترى السيقان ، بكل بساطة ...

البارون الأول : وشرف الجندى ، يا سيدى المستشار ؟

بيكت : (جافاً بعض الشىء) شرف الجندى يا بارون هو أن ينتصر . لنطرح النفاق جانباً . هذا هو ما تكفلت طبقة النبلاء النورماندية بتعليمه لأولئك الذين هزمتهم ... ولأوقظ الملك ، فان دخولنا المدينة متوقع فى الساعة الثامنة وصلاة الشكر فى الكتدرائية فى التاسعة والربع ... ومن سوء السياسة أن نجعل الأسقف الفرنسى ينتظر ... يجب أن يتعاون هؤلاء الناس معنا عن طيب خاطر ...

البارون الأول : (يغمغم) فى زمانى كنا نذبح الجميع ثم ندخل !

بيكت : فى مدينة ميتة ... أريد أن أعطى الملك مدناً حية تغنيه ... وأنا ، ابتداء من الساعة الثامنة من هذا الصباح ، أحسن صديق للفرنسيين .

البارون الأول : (يسأل أيضاً) والشرف الانجليزى ؟

بيكت : (برفق) كان الشرف الإنجليزى يا بارون ، دائماً وفى نهاية الأمر ، هو النجاح !

يدخل خيمة الملك مبتسما ؛ ويتبادل البارونات الأربعة النظر ، فى معاداة .

البارون الثانى : (يغمغم) يالها من عقلية !

البارون الرابع : (يختم فى حكمة) يجب أن ننتظره ، فان له يوما يتراح فيه .

يبتعد البارونات الأربعة . بيكيت يرفع ستار الخيمة ويشبكه . نلمح الملك راقداً مع بنت .

الملك : (متثائباً) صباح الخير يا ولدى ! هل نمت جيداً؟

بيكيت : منعنى من ذلك يا أميرى أثر بسيط من الفرنسيين فى الكتف اليسرى ، وقد انتهزت الفرصة للتفكير .

الملك : (منشغل البال) أنت تسرف فى التفكير ، وسينتهى بك هذا إلى المتاعب ... إنما تنشأ المشاكل من التفكير ... ومن كثرة التفكير سيأتى يوم تجد نفسك فيه أمام مشكلة ، وسيقدم لك رأسك الكبير حلا لما يقذف بك فى حكاية مستحيلة ، كان أولى بك أن تتجاهلها بكل بساطة ، كما يفعل معظم المغفلين الذين تطول أعمارهم ... ما رأيك فى صغيرتى الفرنسية ؟ إنى أعبد فرنسا ، أنا !

بيكيت : (يبتسم) وأنا أيضاً يا أميرى ، مثل كل الانجليز .

الملك : الجو فيها دافىء ، والصبايا حسناوات ، والنبيذ جيد ... إنى أنوى أن أقضى فيها بضعة أسابيع من كل شتاء .

بيكيت : ليس فيها ما يضايق غير شىء واحد ، هو أنها كلفتنا غالياً ، فبالأمس أصبح ما يقرب من ألفى رجل فى حالة لا نسمح لهم بالقتال .

الملك : هل أجرى بومونت إحصاءاته ؟

بيكيت : أجل ، وأضاف نفسه إلى القائمة !

الملك : جريح ؟ (بيكيت لا يجيب ، فيرتعد الملك ، ويقول فجأة فى كآبة) لا أحب أن يبلغنى موت من أعرف ، يخيل إلى أن هذا سيثير فى أفكاراً ...

: ألا ننظر فى الأعمال يا أميرى ؟ إننا لم نفض برقيات أمس ؟

بيكيت : أمس حاربنا ! لا يسعنا أن نفعل كل شىء مرة واحدة !

الملك : كانت إجازة ! وعلينا اليوم أن نعمل عملا مضاعفاً .

بيكيت : (متضايقاً) معك ، سينتهى بى الحال إلى الملل من شغلة

الملك : الملك ! ... دائماً مشغول بالآخرين ! ... لكأنى أسمع كبير الأساقفة ! ... كنت فيما مضى رفيقاً أحسن ! ... وأنا الذى اعتقدت عندما عينتك وزيراً للخزانة ، بكل ما للمنصب من إيرادات ، أن ما ستفعله بكل بساطة هو أن تضاعف استمتاعك بالدنيا ، ولا شىء غير هذا !

بيكيت : لكنى أنعم فى هذه اللحظة بما يسلينى يا أميرى ، هذا يسلينى كثيرا .

الملك : هل يسليك هذا ، أن نشتغل لما فيه خير شعوبى ؟ أتحبهم ، هؤلاء الناس ؟ ... أولا ، عددهم كبير ، ولا يسعنا أن نحبهم لأننا لا نعرفهم ! ... ثم إنك تكذب ، لأنك لا تحب شيئا !

بيكيت : (واضحاً فجأة) أحب شيئاً على الأقل يا أميرى ، وأنا واثق من هذا ، هو أن أحسن عمل ما ينبغى على أن أعمله .

الملك : (مستهزئاً) دائماً ال ... ال ... ما هى كلمتك ، فانى نسيتها ؟

بيكيت : (يبتسم) الجمال ؟

الملك : الجمال ! ... دائما الجمال ؟

بيكيت : أجل يا أميرى .

الملك : (يلطم مؤخرة البنت) وهذا ، أليس من الجمال ؟ هناك من يجدون نشوتهم فى الكتدرائيات ، لكن هذا أيضاً علاج ناجع ! ... أية استدارة ! ... (ويسأل ، طبيعياً ، كما لو كان يقدم قطعة حلوى) أتشتهيها ؟

بيكيت : (مبتسما) الأشغال ، يا أميرى !

الملك : (عابساً ، كتلميذ بليد) حسناً ! الأشغال ! ... إنى مصغ إليك ... إجلس ...

بيكيت : (يجلس بغير كلفة بالقرب منه ، والبنت بينهما مذهولة) الأخبار ليست طيبة يا أميرى .

الملك : (بحركة غير المكترث) الأخبار لا تكون أبداً طيبة ! ... هذا معروف ... الحياة كلها متاعب ... والسر — إذ أن هناك سراً — صاغته أجيال عديدة من فلاسفة خفاف ، هو ألا نعير هذه المتاعب أية أهمية ، فينتهى بها الأمر إلى أن يأكل بعضها بعضاً ، وتجد نفسك بعد عشر سنوات وقد عشت رغم كل شىء ... إن الأمور تسوى نفسها دائما ...

بيكيت : أجل ، لكن على نحو سىء ... عندما تلعب الكرة يا أميرى ، هل تترك الأمور تسوى نفسها ؟ والمضرب هل تنتظر الكرة حتى تأتى إلى مضربك قائلا لنفسك : « سينتهى بها الأمر إلى أن تأتى » ؟

الملك : إنى أمنعك من الكلام ! الأمر هنا متعلق بأشياء جادة ، لأن مباراة الكرة شىء هام ، ما دامت تسليني !

بيكيت : وإذا قلت لك إن الحكم يمكن أن يكون مسلياً مثل مباراة كريكت ؟ هل نترك الكرة للآخرين يا أميرى أم نحاول أن نسجل هدفاً نحن الاثنان ، شأن لاعبين انجليزيين مجيدين ؟

الملك : (يوقظه فجأة الاهتمام الرياضى) الهدف ، بالطبع ! الهدف ! إنى عندما ألعب الكرة لا أرحم نفسى بل وأغش عند الحاجة دون أن أتخلى أبداً عن إصابة الهدف !

بيكيت : حسناً ، إليك كشف الإصابات ... عندما انتهى إلى فكرة شاملة من كل المعلومات التى تلقيتها من لندن منذ عبرنا إلى القارة ، يصدمنى شىء : أن هنالك فى انجلترا قوة تتعاظم حتى لتنافس قوتك يا مولاى ، ألا وهى قوة إكليروسك .

الملك : لقد أخذنا موافقتهم على دفع الضريبة ، وهذا فى حد ذاته مكسب .

بيكيت : إن هو إلا قليل من المال . لكن لهؤلاء الناس براعة فى أن يستردوا بيد ما أجبروا على تسليمه باليد الأخرى، هى لعبة حاو لهم فيها تجارب قرون !

الملك : (للبنت) إصغى ياسمانتى الصغيرة وتعلمى ، فإن السيد يقول أشياء عميقة !

بيكيت : (يقوم بنفس اللعبة وبخفة) أيتها السمانة الفرنسية الصغيرة ، أولى بك أنت أن تعلمينا .... ماذا تفضلين عندما تتزوجين – إذا تزوجت رغم ضياع عفتك ! – أن تكونى سيدة بيتك أو أن يأتى قسيس قريتك ليأمر وينهى فيه ؟

الملك : (متكدراً بعض الشىء ، يعتدل فجأة على ركبتيه فوق الفراش ، مخفيا البنت المفزوعة تحت لحاف من الريش (لنكن جادين يا بيكيت ! أنا أعرف أن للقسس مكائدهم دائماً ، لكنى أعرف أيضاً أنى أستطيع أن أحطمهم عندما أريد .

بيكيت : لنكن جادين ياصاحب السمو إنك إذا لم تحطم فى الحال ، فى ظرف خمس سنوات ، فسوف يكون هناك ملكان فى انجلترا ، كبير أساقفة كنتربرى وأنت.. وفى ظرف عشر سنوات لن يكون فيها غير واحد.

الملك : (يسأل وهوحائر بعض الشىء) ولن يكون هذا الواحد أنا ؟

بيكيت : (ببرود) أخشى ذلك .

الملك : (يصيح فجأة) بل سيكون أنا يا بيكيت ! انى من آل بلانتاجينيه الذين لا يتركون أى شىء يؤخذ منهم ! إلى الخيل ! إلى الخيل يا بيكيت ، من أجل عظمة انجلترا ! هلموا أيها المخلصون ! سنجد فى ذلك ما يغير حالنا !

يضطرب اللحاف فجأة وتخرج منه البنت مشعثه محتقنه ، تتوسل :

البنت : إنى أختنق يامولاى !

الملك : (ينظر إليها مندهشاً ، إذ كان قد نسيها . ينفجر ضاحكاً) ماذا تفعلين هنا يا هذه ، تتجسسين لحساب ألاكليروس ؟ ادخلى والبسى وعودى إلى بيتك ... أعطها قطعة ذهب ياتوماس .

البنت : (تلملم ثيابها وتغطى بها نفسها وهى تسأل) هل سيكون على أن أعود إلى المعسكر هذا المساء يامولاى؟

الملك : (ساخطاً) أجل ... لا ... لا أدرى ! ... نحن فى هذه اللحظة مشغولون بكبير الأساقفة ، لا بك أنت ! ... إجرى! ... (تختفى البنت فى خلفية الخيمة . يصيح الملك) إلى جيادنا ياتوماس !... من أجل عظمة انجلترا ، بقبضتى الكبيرة ورأسك الكبير سنعمل عملا طيباً نحن الاثنان ! (يقلق فجأة . يغير نبرته) دقيقة واحدة !... لاأستطيع أن أطمئن إلى أنى سأجد واحدة أخرى تجيد فن الحب مثلها !

(يقصد خلفية الخيمة وينادى) «ودى الليلة يا ملاكى،
إنى أعبدك !... لك أجمل عينين فى العالم ! (يعود
ويفضى إلى بيكيت) يجب دائماً أن نقول لهن هذا ،
حتى عندما ندفع لهن ، إذا شئنا حقاً أن نجد عندهن
متعة ... هذه أيضاً من السياسة العليا !... (يعاود،
فجأة خوف الغلام من القسس) والله ؟ ماذا هو قائل فى
كل هذا ؟ فهم على كل حال أساقفته !

بيكيت : (بإشارة خفيفة) لم نعد صبية ، وأنت تعرف جيداً
أن فى الوسع دائماً ترتيب المسائل مع الله ، على
الأرض ... عجل بارتداء ملابسك يا أميرى ، فإنا
ندخل المدينة فى الساعة الثامنة و«هو» ينتظرنا فى
كتدرائيته فى التاسعة والربع ، لإقامة صلاة الشكر...
وسنعرف كيف نترضاه بملاطفاتنا الصغيرة ...

الملك : (الذى ينظر إليه ، مفعماً بالإعجاب) يالك من وغد !
(يقبله فجأة بلطف) أحبك ياتوماس ! ماكنت
لأجد الشجاعة على شىء لو أن رئيس وزرائى كان
مملا !

بيكيت : (يخلص نفسه بضيق غير محسوس من الملك) عجل
يا أميرى وإلا تأخرنا !

الملك : (يهرع) سأكون جاهزاً فى لحظة . هل أحلق ؟

بيكيت : (يبتسم) يحسن أن تفعل ، بعد يومين من القتال ...

الملك : أية نفقات من أجل فرنسيين مهزومين إنى لأسائل

نفسى أحياناً عما إذا كنت لا تغالى فى التمدن ياتوماس !
يخرج . يقفل بيكيت الخيمة بينما يحضر جنديان
راهبا صغيراً ، مغلول اليدين .

بيكيت : ما هذا ؟

الجندى : راهب صغير قبضنا عليه يا سيدى وهو يحوم حول
المعسكر ، ووجدنا تحت ردائه سكيناً ، ونحن نأخذه
إلى قائد الحرس .

بيكيت : هل السكين معك ؟ (يقدمه له الجندى فيتأمله بيكيت ،
إلى الراهب الصغير) هل أنت فرنسى ؟

الراهب الصغير : كلا . أنا انجليزى .

بيكيت : من أين ؟

الراهب الصغير : (مكتئباً ، يلقى بالكلمة كما لو كانت إهانة) هاستنجز !

بيكيت : (متسلياً) هكذا ؟ (للجندى) اتركه لى . سأستجوبه .

الجندى : لكنه سريع الهياج ياسيدى ... قاومنا كشيطان حقيقى ..
واحتجنا أن نكون أربعة لانتزاع السكين منه وربط
يديه ... وقد أصاب العريف بجرح ... ولو لم
يلاحظ العريف أنه قد يكون لديه أقوال تؤخذ منه
لقتلناه فى الحال (... ومن أجل هذا نأخذه إلى قائد
الحرس ...(ويضيف) أردت أن أقول لك إنه
خطر ...

بيكيت : (الذى لم يتوقف عن النظر بفضول إلى الراهب
الصغير) حسناً ، امكثوا على مقربة . (الجنود يبتعدون

دون أن يكف بيكيت عن النظر إلى الراهب الصغير،
وهو يلعب بالسكين) ماذا تصنع فى ديرك بهذا ؟

الراهب الصغير : أقطع به خبزى .

بيكيت : (هادئا) تكلم بالفرنسية (1) ، فأنت تعرفها جيداً.

الراهب الصغير : (لا يتمالك أن يصرخ) كيف تعرف هذا ؟

بيكيت : أنا أجيد السكسونية والفرنسية ، وعندما يعرف سكسونى اللغتين فإنى أفهمه ... كل شىء يفسد يا صغيرى حتى السكسونى ... (ويضيف ، جافاً) وفى موقفك هذا يكون من مصلحتك أن تحسب فرنسيا لا سكسونيا ... هذا عنصر مخفف ...

الراهب الصغير : (بعد سكتة ، فجأة) لقد قبلت أن أموت !

بيكيت : (يبتسم) فيما بعد .. لكن اعترف قبل ذلك أن هذا من الغباء ؟ (ينظر إلى السكين الذى يمسكه دائماً بين إصبعين) لمن كانت آلة المطبخ هذه ؟ (لا يرد الراهب الصغير) لم يكن فى وسعك أن تأمل فى أكثر من قتل شخص واحد بها . وما أظنك قمت بالرحلة من أجل جندى نورماندى بسيط واحد ؟
الراهب الصغير لا يرد .

بيكيت : (أكثر جفافاً) يا رجلى الطيب الصغير ، إنهم سيقدمونك

(1) فى النص الفرنسى ينطق الراهب الصغير بعبارة « اقطع به خبزى » باللغة الانجليزية ، وكذلك عبارة : « كلا . انا انجليزى » التى سبقتها وعبارة « كيف تعرف هذا » التى تتبعها .

للاستجواب ! ... ألم تر هذا فى حياتك ؟ ... أنا نفسى اضطرتنى وظيفتى إلى حضور شىء من هذا القبيل ... إننا نعتقد فى قوة روحنا ، لكنهم بارعون إلى حد الفظاعة ، وعندهم علم بالتشريح ينبغى لأطبائنا الحمير أن يقترضوه منهم !... صدق تجربتى ؛ فلا مفر من الكلام فى النهاية ... وإن الأمر ليكون أهون عليك إذا ضمنت لهم أنك أعترفت بكل شىء ، فإن كلمتى موضع التقدير ... (الراهب لا يرد) ثم إن هناك تفصيلا مسليا فى هذه الحكاية ، إذ أنك تتبع سلطتى القضائية مباشرة ... فالملك ، عندما جعل منى وزيراً للخزانة منحنى حقوق وامتيازات أديرة هاستنجز كلها ... ولابد أنه كان لئيما عندما اختار لى هذا الإقليم بالذات ، لكنى تظاهرت بأنى لم ألحظ ذلك ...

الراهب الصغير : (يتراجع ، ويسأل) هل أنت بيكيت؟

بيكيت : أجل . (ينظر إلى السكين الذى يحتفظ به بين إصبعين بشىء من الاشمئزاز) أنت لم تكن تقطع الخبز وحده ، فإن سكينك ينضح برائحة البصل ، شأن سكين أى سكسونى صغير أصيل ... إنه جيد ، أليس كذلك ، بصل هاستنجز ؟ (يوالى النظر إلى السكين بابتسامة غريبة ، ثم إلى الراهب الصغير الصامت) لم تقل لى بعد لمن كان سكينك ؟ لو أنه كان من أجلى فاعترف

. أن اللحظة قد أحسن اختيارها جدا ،
مع فارق واحد هو أنى أنا من يمسك السكين (الراهب
لا يرد) أنت تعرف لغات عديدة ، لكنك صموت،
وأحس أن حوارنا لن يذهب بنا بعيداً ... أما إن كان
من أجل الملك فان هذا شىء لا معنى له ياصغيرى ،
فإن عنده ثلاثة أبناء ، والملوك تتجدد سلالتهم !
هل كنت تعتقد أنك وحدك تخلص جنسك ؟

الراهب الصغير : كلا . (ويضيف ، بصوت مكتوم) بل أخلص نفسى ، أنا .

بيكيت : من أى شىء ؟

الراهب الصغير : من عارى .

بيكيت : (فجأة يصير أكثر جداً) ماعمرك ؟

الراهب الصغير : ست عشرة سنة .

بيكيت : (برفق) إن النورمانديين يحتلون الجزيرة منذ مائة سنة ... إن العار قديم ... أبوك وجدك شرباه ... والكأس الآن فارغة !

الراهب الصغير : كلا .

بيكيت : (نظرته غائمة ، يستطرد برفق) وذات صباح جميل، وعمرك ست عشرة سنة ، صحوت من نومك فى صومعتك على دقات أجراس أول قداس فى الليل، والأجراس هى التى قالت لك أن تسترد لحسابك كل العار؟

الراهب الصغير : (صرخة كصرخة حيوان مطارد) من قال لك هذا ؟

بيكيت : (برفق وإهمال) قلت لك إنى عالم باللغات ! (ويسأل بغير اكتراث) أتعرف أنى سكسونى مثلك

الراهب الصغير : (مغلقاً) أجل .

بيكيت : (مبتسما) ابصق . لك رغبة فى البصق .
الراهب الصغير ينظر اليه بشىء من الوجل ... ثم يبصق .

بيكيت : (دائم الابتسام) هذا يريح ، أليس كذلك ؟ (يتكلم فجأة بوضوح قاطع) الملك ينتظرنى ومحادثتنا ستطول ، لكنى حريص على أن أبقيك حياً ، لكى أستأنفها معك فى يوم قريب) ويضيف ، بخفة) واعلم أنى أفعل ذلك بأنانية مطلقة ... من الواضح أن حياتك لا قيمة لها عندى ، لكن من النادر أن يسوق القدر إلى الإنسان شبحه الحقيقى ، فى شبابه . (ينادى) أيها الجندى (يعود الجندى ويتزرع ، بضجة سلاح، فى وقفة ايتباه) اذهب فجئنى بقائد الحرس فى الحال (الجندى يهرول منصرفاً ، ويعود بيكيت إلى الراهب الصغير الصامت) (صباح ساحر ، أليس كذلك ؟ هذه الشمس المبكرة بالدفء تحت هذا الضباب البالغ الخفة ... ما أجملها فرنسا ! ... لكنى مثلك أفضل الضباب المصمت فى برارى هاستنجز ... إن الشمس ترف ... وكلانا من جنس يزدرى الترف ...) يتقدم قائد الحرس ، يتبعه الجندى ،

وإنه لشخصية هامة لكن من المحسوس أن بيكيت صعب المنال ، حتى على قائد الحرس) ميلدى قائد الحرس ، قبض رجالك على هذا الراهب وهو يحوم حول المعسكر ، وهو من فتيان دير هاستنجز ويتبع سلطتى القضائية مباشرة . وعليك ان تتخذ الإجراءات لإعادته إلى انجلترا ونقله إلى الدير ، وعلى رئيس الدير أن يضعه تحت مراقبته إلى حين عودتى. ولاتوجد تهمة أخرى محددة ضده فى الوقت الحاضر . وأريد أن يعامل بغير قسوة ، لكن تحت رقابة صارمة ... وستكون مسئولا عن هذا أمامى .

قائد الحرس : حسناً ياسيدى .

يشير فيحيط الجنود بالراهب الصغير ، ويأخذونه قبل أن يلقى عليه بيكيت نظرة أخيرة ، ويظل بيكيت وحيداً ينظر إلى السكين وهو يغمغم ، متشمما فى شىء من الاشمئزاز .

بيكيت : شىء مؤثر وإن كان كريه الرائحة . (يلقى بالسكين بعيدا ، ويصفر نشيده الصغير ، متجهاً نحو الخيمة... يدخل الخيمة صائحاً بخفة) حسناً يا أميرى ، هل تجملت ؟ . حان الوقت للرحيل والا جعلنا الأسقف ينتظر !..

تدوى فجأة دقات نوا قيس مرحة . تختفى الخيمة بمجرد دخول بيكيت إليها . يتغير الديكور ويهبط من السقف منظر شارع .

الشارع : هى نفس الأعمدة ، لكن الجنود المصطفين يزينونها بالرايات ، على حين يتقدم الملك وبيكيت على جواديهما فى المدينة ، يتقدمهما بوقان ، والملك متقدم قليلا على بيكيت ، يتبعهما البارونات الأربعة .

ضجيج هتافات الجمهور .

أجراس وأبواق خلال المشهد كله .

الملك : (مبتهجاً ، محيياً) هؤلاء الفرنسيون يعبدوننا !

بيكت : كلفنى هذا غالياً ، فانى فى الصباح وزعت النقود على عامة الشعب ... أما البورجوازيون فهم مستاءون فى بيوتهم .

الملك : (يسأل) وطنيون ؟

بيكت : كلا ، لكن ثمنهم أغلى !... وفوق ذلك فان فى الجمهور عدداً من جنود فخامتك المتنكرين لاستثارة حماس المترددين !

الملك : لماذا تلهو دائماً بتبديد كل أوهامى ؟ . كنت أظننى محبوباً لذاتى ! ... أنت رجل بلا خلاق يا بيكيت (يسأل فجأة بقلق) هل يقال بلا خلاق ، أم « لا أخلاق » ؟

بيكت : (يبتسم) هذا يتوقف على نريد قوله ... والشىء الوحيد اللاأخلاقى يا أميرى هوأن لا نفعل ما يجب فعله ، عندما يجب فعله .

الملك : (محيياً الجمهور بلطف) بالاختصار ، أنت لا تؤمن بالأخلاق علاجاً ؟

بكيت : (محيياً هو الآخر بعد الملك) للاستعمال من الظاهر
فقط يا أميرى !

الملك : حلوة ، البنية ، التى على اليمين فى الشرفة ! ماذا لو
توقفنا ؟

بيكيت : مستحيل . مواعيد الموكب دقيقة . والأسقف
ينتظرنا فى الكتدرائية .

الملك : إن الأمر ليكون مسلياً أكثر من الذهاب لرؤية أسقف
ما أكثر ما رأيت من أساقفة ! عندى منهم عسر
هضم ! علم البيت بعلامة !

بيكيت : حصل ! أمام فندق الوعل بشارع الدباغين !

الملك : (مندهشاً) أنت رجل مدهش ! هل تعرف هذه
المدينة ؟

بيكيت : تعلمت فيها اللغة الفرنسية . كان أبى متمسكاً بها ،
ففيها أكثر اللهجات نقاوة .

الملك : أنت تعرف جميع النساء هنا إذن ؟

بيكيت : (مبتسما) أجل . لكن لابد أنهن الآن عجائز .
هل أنت متذكر يا مولاى ما يجب أن تقوله للأسقف؟

الملك : (محيياً) طبعاً طبعاً ! يا لأهمية ما ينبغى على أن أقوله
لأسقف فرنسى استوليت على بلده بالقوة !

بيكيت : مهم جداً ، بالنسبة لسياستنا المقبلة .

الملك : أنا الأقوى أم لست أنا الأقوى ؟

بيكيت : أنت الأقوى اليوم ، وهذا هو السبب فى أن عليك

بصفة خاصة أن تكون لطيفاً مع الأسقف ، لأنك بهذا
ستبدو فى عين ذلك الرجل أقوى ألف مرة .

الملك : لطيف مع مهزوم !... إن جدى عندما كان يجد
مقاومة كان يذبح الجميع ... نحن نزداد طراوة منذ
اختراع الشوك !

يكبت : لا ينبغى مطلقاً يا أميرى أن نملأ نفس عدونا يأساً ...
إن هذا يجعله قوياً ...سياسة الرقة أحسن ... إنها
تستل نخاع الحيوية ... إن الاحتلال الجيد يجب أن
لا يحطم ، بل يخرب !

الملك : (متهكماً) هل ستعطينى دروساً فى الاحتلال ،
أنت ، أيها السكسونى الصغير ؟!

يكبت : ولى الحق ياأميرى ، فلقد كان عندى مائة سنةللتفكير
فى ذلك !

الملك : (محيياً بلطف) ومتعتى ، ماذا أنت فاعل بها إذا
حلا لى أن أدخل فى هذا الحشد من أكله الضفادع
فى الحال بدلا من الذهاب لأحاكيهم كما تفعل القردة
فى صلاة شكرهم ؟ هل فى وسعى أن أخص نفسى
بمتعة أم لا ؟ أنا المنتصر !

يكبت : إذن تكون هذه غلطة . بل أسوأ من هذا ، يكون
ضعفاً . فى وسعنا أن نسمح لأنفسنا بكل شىء ياأميرى ،
لكن لا ينبغى أن نخص نفسنا بشىء !

الملك : سمعاً وطاعة يا بابا ! ... أنت اليوم مقبض !...

انظر الجميلة الكستنائية الواقفة على النافورة !...
أصدر الأوامر بأن يتبع الموكب نفس الطريق فى
العودة ! ... (يتقدم ورأسه ملتفت من فوق جواده
لكى يطيل النظر إلى البنت ، إلى آخر حدود الإمكان.
يمران ويختتم البارونات الأربعة المسيرة . صوت
أرغن . تختفى الرايات مع الجنود : إنها الكتدرائية .
الديكور خال . نسمع الأرغن ، أصوات ضبط
فقط ، فإن العازف يتمرن . ثم يدفع من جهة
الحاشية حاجز يصور مذبح القداس . ويدخل الملك
فى ملابس الاحتفال ، والبارونات ، وقسيس مجهول،
وصبى من جوقة الترتيل . يبدو أنهم ينتظرون . الملك،
نافد الصبر ، يجلس على متكأ . بيكيت غير موجود)
لكن أين بيكيت ؟ وماذا ننتظر ؟

البارون الأول : كل ماقاله هوأن ننتظر يامولاى ، لأن هناك شيئا
لم يكتمل .

الملك : (ينهض ، ويتمشى عكر المزاج) كل هذه الطقوس
من أجل أسقف فرنسى !... ما شكلى ، أنا ،
وأنا أنتظر هنا فى حجرة الملابس الكهنوتية مثل
عريس يافع ؟

البارون الرابع : هذا رأيى أيضاً يا مولاى ... أنا لا أفهم عدم
دخولهم ... مهما يكن من شىء فان هذه الكتدرائية
ملكك الآن ! ... (يسأل) ألا نهجم يا مولاى .
بالسيوف مشرعة فى قبضاتنا ؟

الملك : (مهموما ، يذهب فيعاود الجلوس بتعقل) لا ، إن
هذا لن يرضى بيكيت . وهو على أية حال يعرف
خيراً مما نعرف ما ينبغى عمله . لابد أن هناك سببا ،
مادام يجعلنا ننتظر . (بيكيت يدخل ، مشغولا)
حسناً يا بيكيت ؟ إننا نتجمد من البرد هنا ! ما لهؤلاء
الفرنسيين يتركوننا نتعفن فى مذبحهم ؟

بيكيت : أنا الذى أمرت بذلك يامولاى ... إجراء أمن ...
رجال بوليسى متأكدون من أن انتفاضة فرنسية
كان مقدراً لها أن تنفجر خلال الاحتفال .

الملك ينهض .

البارون الثانى : (يستل سيفه فيتبعه الآخرون) اللعنة !

بيكيت : اغمدوا سيوفكم فان الملك فى أمان هنا . لقد نصبت
حرساً على المداخل .

البارون الثانى : أتأذن لنا فى أن نذهب فننظف كل هذا يا أميرى ؟
ولن يطول بنا الأمر !

البارون الرابع : ندخل إلى الداخل ؟!

بيكيت : (جافاً) إنى أمنعكم . عددنا ليس كافياً . وأنا الآن
أدخل قوات جديدة إلى المدينة وأخلى الكتدرائية .
وإلى أن يتم ذلك ، فانى أعهد إليكم أيها السادة
بشخص الملك . لكن اغمدوا سيوفكم . لا استفزاز ،
من فضلكم . نحن تحت رحمة حادث ، وليس عندى
حتى الآن غير رجال الحرس الخمسين فى المدينة .

الملك : (يشد بيكيت من كمه) بيكيت ! هل هذا القسيس فرنسى ؟

بيكيت : (ناظراً إليه) أجل ، لكنه من بطانة الأسقف ، والأسقف معنا .

الملك : تعرف مدى إمكان الاعتماد على الأساقفة الإنجليز !... فما بالك بأسقف فرنسى !... إن لهذا الرجل نظرة لا تبدو لى صريحة .

بيكيت : الأسقف ؟

الملك : كلا . هذا القسيس .

بيكيت : (ينظر إلى القسيس ، وينفجر ضاحكاً) معذور يا أميرى فهو أحول ! وأؤكد لك أنه ليس فيه ما يقلق غير هذا ؛ وليس من الكياسة أن نطلب منه الخروج. ثم حتى على فرض أن معه خنجراً ، فإن معك درعك وأربعة من باروناتك ... سأذهب لأشرف على إخلاء صحن الكنيسة .

يهم بالخروج فيدركه الملك .

الملك : بيكيت ! (يتوقف بيكيت) وصبى جوقة الترتيل ؟

بيكيت : (ضاحكاً) هذا الذى طوله شبر !

الملك : لعله قزم ! من يدرى حقيقة هؤلاء الفرنسيين ! (يجذب بيكيت إليه) بيكيت ، لقد تكلمنا فى هذا الصباح بنزق طائش ، فهل أنت متأكد أن هذا ليس انتقام الله ؟

بيكيت : (يبتسم) بالتأكيد لا وأخشى أن يكون الأمر ببساطة خوفاً اعترى بوليسى أو إفراطا منه فى الحماسة ... ومن شأن رجال البوليس ، لكى يبرزوا قيمتهم الذاتية ، أن يميلوا قليلا إلى تصور القتلة فى كل مكان.. ومهما يكن من شىء فاننا سنستمع إلى تلك الصلاة ، وإن يكن ذلك فى كنيسة خالية !

الملك : (بمرارة) وأنا الذى كنت منذ قليل أعتقد أن هؤلاء الناس يعبدوننى !... لعلك لم توزع عليهم الكفاية من النقود ؟

بيكيت : إننا يا أميرى لا نشترى إلا المعروضين للبيع ؛ وهؤلاء بالذات ليسوا خطرين ؛ أما الآخرون فهم ذئاب فى مواجهة الذئاب ... سأعود فى الحال لأطمئنك .

يخرج .

الملك فى قلق يبدأ فى ملاحظة حركات القسيس الذى يذرع المكان وهو يغمغم بصلوات .

ينادى :

الملك : يا بارون !

البارون الرابع ، الأقرب إلى الملك ، يتقدم ويسأل بصوته الراعد :

البارون الرابع : مولاى ؟

الملك : (يسكته) صه ! راقبوا هذا الرجل ، أنتم الأربعة ، ولتثبوا عليه عند أول بادرة ! (مناورة مضحكة

صغيرة من البارونات والقسيس الذى بدأ القلق يعتريه هو الآخر ... فجأة يدوى دق عنيف على باب الحجرة فيتفزز الملك (ما هذا ؟

جندى : (يدخل) رسول من لندن يامولاى . جاء من المعسكر. بعثوا به إلى هنا . والرسالة عاجلة .

الملك : (مهموماً) هذا مريب . إذهب إلى ريجنولت .

البارون الرابع يخرج ، ثم يرجع ساكن الروع .

البارون الرابع : إنه جيوم دى كورباى يا مولاى ، ومعه رسائل عاجلة .

الملك : هل أنت متأكد أنه هو ؟ أليس فرنسياً متنكراً فى صورته ؟ إنها خدعة كلاسيكية .

البارون الرابع : (ينفجر بالضحك) إنى أعرفه يا أميرى ، فلقد أفرغت معه من مكاييل الخمر عدداً أكبر مما فى سحنته من شعر ، وما أغزر شعر ذلك الخنزير !

الملك يشير ، فيدخل البارون الرابع الرسول الذى يقدم رسائله إلى الملك وإحدى ركبتيه على الأرض .

الملك : شكراً !... إنهض ... إن لك لحية جميلة يا جيوم دى كورباى ! ثابتة تماما ؟!

الرسول : (وهو ينهض فى ذهول) لحيتى ؟!

البارون الرابع يضحك ويضربه على كتفه .

البارون الرابع : هذا القنفذ العجوز العزيز !...

الملك : (الذى تصفح الرسائل) أنباء طيبة يا سادة . نقص

عدد أعدائنا واحداً . (يهتف مسروراً ، ببيكيت يدخل) بيكيت !

بيكيت : كل شىء دبرناه يا أميرى ، والقوات فى الطريق . لم يعد أمامنا إلا أن ننتظر هنا بهدوء .

الملك : (مبتهجاً) حقاً إن كل شىء له تدبيره يابيكيت ! إن الله ليس غاضبا علينا ، فلقد استدعى إليه كبير الأساقفة !

بيكيت : (يغمغم ، فى دهشة) ذلك الرجل القصير الهرم ... كيف وسع ذلك البدن الضعيف أن يضم كل تلك القوة ؟

الملك : حسبك ! حسبك ! لا تبدد حزنك يا ولدى !... أنا شخصيا أعتبر هذا نبأ طيباً للغاية !

بيكيت : إنه أول نورماندى اهتم بى ... ولقد كان حقاً بمثابة والدى ... أكرم الله روحه !

الملك : طمئن نفسك ! بعد كل ما أداه لله من خدمات ، لابد أنه الآن فى السماء ، حيث سيكون أكثر نفعاً لله منه لنا ! ... ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! (يجذبه إليه) بيكيت ! ياصغيرى بيكيت ! أعتقد أننا ممسكان بالكرة ، ولقد حان أن نصيب الهدف ! (يسحبه من ذراعه ، متوتراً ومتغيراً) هناك فكرة خارقة تأتينى الآن يا بيكيت ! ضربة معلم !... لا أدرى ماذا حل بى هذا الصباح ، لكنى أشعر

بنفسى على حين غرة فائق الذكاء !... لابد أن السبب هوأنى ضاجعت الليلة مرأة فرنسية !... أنا فطين يا بيكيت ، أنا عميق !... يبلغ من عمق أنى أشعر بنوع من الدوار . . . هل أنت متأكد أن التفكير بقوة ليس خطراً ؟! ... توماس ، يا صغيرى توماس ! أتسمعنى ؟

بيكيت : (مبتسما من هوسه) أجل يا أميرى .

الملك : (منفعلا كولدصغير) أتسمعنى جيداً ؟... اسمع يا توماس !... لقد قلت لى مرة أن أحسن الأفكار هى أحمقها ، لكن يكفى أن يفكر المرء فيها ... اسمع يا توماس !... إن التقاليد تمنعنى من المساس بامتيازات رأس الكنيسة ... هل تتبعنى جيداً ؟

بيكيت : أجل يا أميرى ...

الملك : لكن إذا كان رأس الكنيسة رجلى ؟ إذا كان رئيس أساقفة كنتربرى رجل الملك ، ففيم يمكن أن تضايقنى سلطته .

بيكيت : تفكير بارع يامولاى ، لكنك تنسى أن الانتخاب حر .

الملك : كلا ! أنت الذى ينسى سلطة الملك ! أتعرفها ؟ عندما لا يعجب المرشح الملك ، يبعث الملك بوزير بلاطه إلى مجمع الأساقفة ، وللملك الكلمة الأخيرة... هذا أيضاً من التقاليد ... وهو فى هذه المرة يوافق

هواى ! ... إن مجمع الأساقفة منذ مائة سنة لا ينتخب ضد رغبة الملك !

يكيت : بغير شك يامولاى ... لكننا نعرفهم ، أساقفتك كلهم ... إلى من منهم تطمئن؟ ... بمجردما يضعون قلنسوة كبير الأساقفة على رءوسهم يصيبهم الدوار!

الملك : أتسألنى يا بيكيت ؟ أنا أطمئن إلى واحد لا يصيبه الدوار ... إلى واحد لا يخاف حتى السماء نفسها ... توماس ياولدى ، أنا محتاج اليك مرة أخرى والمسألة جد هذه المرة ... إنى آسف لحرمانك من بنات فرنسا ومن المعارك ياولدى ، لكن المتعة ستكون فيما بعد... ستعبر البحر إلى إنجلترا .

يكيت : طوع أمرك يامولاى .

الملك : هل تخمن ماذا تكون مهمتك هناك ؟

يكيت : (تظهر فى وجهة بوادر قلق مما سيأتى بعد) كلا يا أميرى .

الملك : ستحمل إلى هناك رسائل شخصية منى ، موجهة إلى كل أسقف على حدة ... وهل تعرف ماتحتويه هذه الرسائل ياتوماس ، ياصغيرى توماس ، يا أخى الصغير ؟ ... إرادتى الملكية فى أن أراك تنتخب كبيراً للأساقفة .

يكيت : (كالمصعوق فجأة ، بالغ الشحوب ، يحاول أن يضحك (إنها دعابة يا أميرى ؟ تأمل قليلا الرجل

الورع ، الرجل المقدس ، الذى تريد أن تعهد إليه بهذه الاختصاصات المقدسة ! (يفتح ثوبه الجميل بهيئة مضحكة (آه ياأميرى ، يا لها من نكتة طيبة ! (الملك ينفجر بالضحك ، وبيكيت يضحك أيضاً ، بقوة ، بارتياح (أى كبير أساقفة جميل كنت حرياً أن أكون !... انظر إلى حذاءى الجديدين ! آخر « موضة » فى باريس ! أليست أنيقة ، هذه القلابة الصغيرة ؟ أليست مليئة بالتعميد والتكفير ؟!

الملك : (متوقفاً عن الضحك فجأة) أرحنى من حذاءيك يا توماس ! أنا جاد فى هذه اللحظة ، وسأكتب الرسائل قبل الظهر . وستساعدنى .

بيكيت : (شاحباً ، وقد عاوده جموده ، يغمغم) لكنى لم أصل حتى إلى أن أكون قسيسا يا مولاى !

الملك : (حاسما) أنت شماس ... وعندك مهلة ، إذ تستطيع أن تقوم بطقوسك الأخيرة غداً وتعين فى خلال شهر .

سيكت : لكن هل فكرت فيما قد يقوله البابا ؟

الملك : (بفظاظة) سأدفع !

بيكيت : (يغمغم ، كمن خارت قواه ، بعد لحظة صمت قلقة (يا أميرى ! أرى الآن أنك لا تقصد إلى الدعابة.. لا تفعل هذا !

الملك : لماذا ؟

بيكيت : لأن هذا يخيفنى .

الملك : (قناعه صار صلباً) هذا أمر يا بيكيت !

بيكيت لا يتحرك ، مصعوقاً بذهوله .

فترة صمت ، ثم يغمغم .

بيكيت : (بجد خطير) لو أنى صرت كبير الأساقفة فلن يكون فى وسعى بعدها أن أكون صديقك .

الأرغن يدوى فجأة فى الكتدرائية .

يظهر ضابط .

الضابط : الكنيسة خالية يا مولاى ، والأسقف ورجاله ينتظرون تعطفكم السامى .

الملك : (بفظاظة ، لبيكيت) أتسمع يا بيكيت ! ثب إلى رشدك ! إن لك لطريقة فى الوقوف على الأخبار الطيبة !... أين أنت ؟ يقال لك إننا نستطيع أن نذهب إليهم .

يتشكل الموكب ، وعلى رأسه القسيس وصبى جوقة الترتيل .

بيكيت يأخذ مكانه وراء الملك بقليل ، وهو ما يزال يغمغم ...

بيكيت : إن هذا لجنون يامولاى ... لا تفعل هذا ... لن أعرف كيف أخدم الله وأخدمك !

الملك : (الذى ينظر أمامه ، مغلقاً) إنك لم تخيب أملى قط يا توماس ، ولا أثق ألا فيك ... أنا أريد هذا ...

وسترحل هذا المساء ... هلم بنا الآن ...
يشير إلى القسيس فيبدأ الموكب فى التحرك ، منتقلا إلى الكتدرائية الخالية التى يدوى فيها الأرغن . لحظة من العتمة ، مع الأرغن . فى إضاءة غير واضحة تظهر حجرة بيكيت ، وبها صناديق مفتوحة يملأها وصيفان بملابس ثمينة .

الوصيف الثانى : (أصغر سناً من الآخر) السترة المكلفة بفراء السمور أيضاً ؟

الوصيف الأول : كل شيء . قيل لك هذا !

الوصيف الثانى : (يغمغم) فراء السمور للفقراء ! لن يعودوا قادرين على اكتساب درهم واحد متى وضعوا الفراء على ظهورهم ! سيموتون جوعاً !

الوصيف الأول : (هازلا) سيلتهمون الفراء يا غبى ! ... ألا تفهم أن كل شيء سيباع ثم يوزع المال على الفقراء؟

الوصيف الثانى : ولكن هو ؟ ماذا سيلبس ؟ لم يبق له شيء !

بيكيت : (يدخل ، فى روب دى شامبر رمادى شديد البساطة) هل امتلأت الصناديق ؟ أريد أن تنقل إلى اليهودى هذا المساء ، أن لا يبقى هنا غير الجدران ... خذ لحاف الفراء يا جال .

الوصيف : (محزوناً) مولاى سيبرد فى الليل !

بيكيت : إفعل ما أقوله لك .

الوصيف الأول يأخذ لحاف الفراء فى استياء ويضعه فى الصندوق .

بيكيت : (سائلا) هل أخطر مدير التموينات بمأدبة الليلة ؟ مائدة لأربعين ، فى القاعة الكبرى .

الوصيف الأول : يقول يا مولاى إنه لن يجد ما يكفى من الصحاف الذهبية ، فهل نخلط بها صحاف الفضة ؟

بيكيت : فلينصب مائدته مستخدماً ما عنده فى المطبخ من قصاع خشبية وفخارية ، فلقد بيعت أدوات المائدة ، وسيبعث اليهودى قبل هذا المساء بمن يأخذها .

الوصيف الأول : (يكرر ، منصعقاً) القصاع الخشبية والفخارية ... سمعاً وطاعة يا مولاى ! ... لكن مدير التموينات قلق أيضاً بشأن قائمة الدعوات ... ليس عنده غير ثلاثة من حملة الرسائل ، ويخشى أن لا يتسع له الوقت ....

بيكيت : لا توجد دعوات ... سيفتح الباب الكبير على مصراعيه ، وستذهبون فتقولون للفقراء فى الشارع انهم يأكلون معى هذا المساء .

الوصيف الأول : (مرعوباً) حسناً يا مولاى !

يهم بالخروج مع الآخر ، فيستوقفه بيكيت .

بيكيت : أريد أن تكون الخدمة متقنة . وتقدم الأطباق أولا ، بكل احتفال ، كما لو كانت تقدم إلى الأمراء . إذهب . (يخرج الوصيفان . عندما يصير بيكيت وحيداً

يرفع بغير اكتراث ثوباً فاض به الصندوق ، ويغمغم) كل هذا كان جميلا حقاً . (يغلق الصندوق فجأة وينفجر ضاحكاً) يالها من نغزة خيلاء ! شأن محدث النعمة ! ... إن رجلا مقدسا حقيقيا ما كان ليفعل كل هذا فى يوم واحد ... إن أحداً لن يصدق أن هذا صحيح ... (يقول ببساطة شديدة لصليب مرصع بالأحجار الكريمة ومعلق فوق السرير (أتعشم يا مولاى أن لا يكون غرضك من الايحاء إلى بكل هذه القرارات المقدسه هو أن تجعلنى مضحكاً ؟ ... كل شىء ما يزال جديداً كل الجدة ، ولعلى أنفذ بغير حذق ... (ينظر إلى تمثال المسيح المصلوب وينتزعه من مكانه فجأة) أنت أيضاً مفرط فى الثراء ، وحول جسدك الدامى كرائم الجوهر ... سأعطيك لكنيسة فقيرة . (يضع تمثال المسيح المصلوب على الصندوق المغلق ، وينظر حوله فى خفة وهناء ، ويغمغم) نحن على سفر ... إغفر لى يا مولاى ، فانى فى عمرى كله ما تسليت بهذا القدر ! ... أنا لا أعتقد أنك إله حزين ... لابد أن فرحى بالانسلاخ من جلدى هو جزء من مقاصدك . (يمر وراء ستار الغرفة الخلفية حيث نسمعه – والمنظر خال – يصفر بمرح نشيداً انجليزياً قديماً ... وسرعان ما يخرج عارى القدمين فى خف ، وهو فى ثوب راهب من صوف خشن

بسيط ... يشد الستار ، ويغمغم(ها نحن ، وداعاً يا بيكيت ! كنت أحب على الأقل أن آسف على شىء فأمنحه لك ! (يقصد تمثال المسيح المصلوب ويقول ببساطة) مولاى ، هل أنت متأكد أنك لا تبلونى إن كل هذا يبدو لى فى غاية البساطة !

يسقط راكعاً على ركبتيه ويصلى .

ينزل الستار

الفصل الثالث

قاعة فى قصر الملك . الملكتان على المسرح ، الملكة الام والملكة الشابة ، منهمكتان فى اشغال الابرة . ابنا الملك ، الكبير والصغير ، يلعبان على الارض فى ركن . الملك فى ركن آخر يلعب بلعبــة فى يده ويخيب فى كل مرة فى ادخال الكرة المثقوبة فى طرف العصا ، فينتهى الى ان يقذف باللعبة ويهتف فى كدر .

الملك : أربعون فقيراً ! لقد دعا أربعين فقيراً إلى العشاء !

الملكة الأم : إنه مهووس ! لقد قلت لك دائماً يا ولدى انك وضعت ثقتك فى غير محلها .

الملك : (متمشياً فى القاعة) سيدتى ، أنا دقيق فى وضع ثقتى حيث أضعها ، ولم أفعل ذلك غير مرة واحدة فى حياتى ، ولا أزال مقتنعاً بأنى لم أخطىء ... كل ما فى الأمر هو أننا لا نفهم كل شى ! . إن توماس أذكى ألف مرة منا كلنا مجتمعين !

الملكة الأم : أنت تتكلم عن شخصيات ملكية يا ولدى ...

الملك : (مغمغماً) هذا لا يمنع ! توزيع الذكاء تم بطريقة أخرى تماماً ... إن هؤلاء الأربعين فقيراً يمثلون فى ذهنه شيئاً ما ... ماذا ؟ هذا ما سنعرفه عما قليل ... لقد استدعيته هذا الصباح !

الملكة الشابة : يبدو أنه باع أدوات مائدته الذهبية وصناديقه وكل ملابسه ليهودى ، وارتدى ثوباً بسيطاً من خشن الصوف .

الملكة الأم : إنى أرى فى هذا على الأقل دليلا على حب المباهاة ! صحيح أن فى الوسع التحول إلى رجل مقدس ، لكن ليس فى يوم واحد .

الملك : (قلقاً فى أعماقه) لابد أنها دعابة ! أنتم لا تعرفونه ... لا يمكن إلا أن تكون دعابة ... كان دائماً صاحب دعابة ... ذات مرة تنكر فى زى امرأة وتفسح ليلة كاملة فى لندن متعلقاً فى ذراعى !

الملكة الأم : (بعد سكتة) ما أحببت هذا الرجل قط ، ولقد كنت مجنوناً عندما جعلته قوياً إلى هذا الحد .

الملك : (صائحاً) إنه صديقى !

الملكة الأم : (لاذعة) للأسف !

الملكة الشابة : هو صديق فجورك ! هو الذى أبعدك عن واجباتك نحوى ... هو الذى كان أول من قادك إلى البغايا !

الملك : (فى هياج) كلام فارغ يا مدام ! ... إنى لم أكن فى حاجة إلى أحد لإبعادى عن واجباتى نحوك كما

تقولين ... لقد وهبتك ثلاثة أطفال ، بكثير من التردد أوف ! واجبى انتهى !

الملكة الشابة : (مستفزة) سوف تعود إلى تقدير المسرات العائلية عندما يكف هذا الداعر عن تأثيره المنحوس عليك . ولنتعشم أن يعصاك !

الملك : مسرات عائلتى محدودة يا مدام ... وبصراحة أنا أعانى معكم الملل ! سئمت ثرثرتكما الأبدية فوق أشغال الابرة الأبدية ! ... ليس هذا غذاء لرجل ! (يتجول فى القاعة فى غضب ، ويتوقف خلفهما) لو أن لهذا على الأقل قيمة فنية ! ... إن جدتى ماتيلدة ، فى انتظار زوجها الذى ذهب يفصل مملكته ، أبدعت تحفة فنية بقيت لسوء الحظ فى بايو ... أما عملكما فهو قليل الأهمية !

الملكة الشابة : (مستفزة) لكل حسب مواهبه !

الملك : أجل . ومواهبكما ضئيلة ! (يذهب مرة أخرى إلى النافذة لمعرفة الوقت ، ويهتف فى يأس) إنى أعانى الملل منذ شهر ولا أجد من أكلمه ! ... لكنى لا أريد بعد تعيينه أن أبدو بمظهر الملهوف عليه ... حسناً ! تركت له الفرصة لاتمام جولته الكنسية ، وها هو يعود منها آخر الأمر ، وها أنا أناديه فيتأخر ! (ينظر مرة أخرى من النافذة ويهتف) آه ! هناك شخص عند مركز الديدبان ! ... (يعود خائب الأمل)

كلا ، إن هو إلا راهب ! ... (يتجول فى القاعة فى حيرة ، ثم يقصد الطفلين ويتأملهما لحظة فى لعبهما . يغمغم (الولدان الفاتنان ! بذرة الرجل ! من الآن لئيمة وسطحية ! ومع هذا فان من واجبى أن أحنو عليهما بحجة أنهما ما يزالان أصغر من أن أكرههما أو أحتقرهما ... من منكما الأكبر؟

الأكبر : (ينهض) أنا يا سيدى .

الملك : ما اسمك ؟

الولد : هنرى الثالث .

الملك : (صارماً) ليس بعد أيها السيد ! ... رقم اثنين صحته جيدة ! (ويرشق الملكة :) تربية جميلة يا مدام ! من الآن ترين نفسك وصية على العرش ! ثم تندهشين بعد ذلك من أنى أقاطع جناحك ؟ أنا لا أحب أن أضاجع أرملتى ! أليس ذلك من حقى؟

يدخل ضابط .

الضابط : رسول من كبير الأساقفة يا مولاى .

الملك : (خرج عن وعيه) رسول ! رسول ! إنى إنما استدعيت كبير الأساقفة نفسه ! (يلتفت نحو المرأتين ، قلقاً فجأة ، يكاد يكون مؤثراً) لعله مريض ؟ إن هذا يفسر كل شىء !

الملكة الشابة : (لاذعة) وإنه ليكون شيئاً جميلا للغاية !

الملك : (بغضب) تردن أن ترينه ميتا ، لأنه يحبنى ، أيتها

الاناث ؟ ما دام لم يجىء فهو مريض مرض الموت ... آه يا توماس ! ... أدخل الرسول فى الحال .

يخرج الضابط ويدخل راهباً .

الملك : (يتجه إليه باندفاع) من أنت ؟ هل بيكيت مريض ؟

الراهب : (إحدى ركبتيه على الأرض) أنا يا مولاى جيوم ، ابن إتيين ، سكرتير صاحب النيافة كبير الأساقفة .

الملك : هل اشتدت بسيدك العلة ؟

الراهب : كلا يا مولاى ، نيافته فى أحسن صحة . وقد كلفنى بأن أحمل مع التعبير عن احترامه العميق هذه الرسالة ، وهذا أيضاً ، لسموكم .

يعطى الملك شيئاً ، وهو يزيد فى انحنائه .

الملك : (فى ذهول) الختم لماذا يعيد إلى الختم؟ (يبسط صفحة الرق ويقرأ الرسالة فى سره ، ثم ينطوى على نفسه فى برود ، ويقول للراهب دون أن يشكره (حسناً . انتهت مهمتك . إذهب .

الراهب ينهض ، لكنه فى لحظة خروجه يسأل :

الراهب : هل هناك رد من سموكم أحمله إلى مولاى كبير الأساقفة ؟

الملك : (بصرامة) لا .

يخرج الراهب .

يظل الملك لحظة حائراً ، ثم يذهب فيلقى بنفسه فى كآبة على عرشه .

المرأتان تتبادلان نظرات متواطئة . تنهض الملكة الأم وتسعى إليه فى مكر .

الملكة الأم : حسناً يا ولدى ، ما الذى كتبه لك صديقك ؟

الملك : (ينهض ويزعق) اخرجى ! اخرجا أنتما الاثنتان ! ولتأخذا معكما حشراتكما الملكية ! ... أنا وحيد ! .. (الملكتان المفزوعتان تخرجان مع الولدين ، ويظل الملك لحظة مترنحاً كالمشدوه من أثر الضربة ، ثم ينهار باكياً كالطفل ، ورأسه مستندة إلى عرشه يئن : (آه يا توماس الغالى ! (يظل لحظة منطرحاً ثم يتمالك نفسه وينهض شاحباً . يقول فجأة وأسنانه مطبقة وهو يتأمل الختم الذى احتفظ به فى قبضته المضمومة(أنت ترد إلى أسود المملكة الثلاثة مثل صبى لم يعد يريد اللعب معى ! ... تعتقد أن عليك الآن أن تدافع عن شرف الله ! ... أما أنا فما كنت لأتردد ــ دفاعاً عنك أيها السكسونى الصغير - فى أن أشن حرباً أجر فيها انجلترا كلها ورائى ، ولو كانت هذه الحرب ضد مصلحة انجلترا ... أنا من أجلك كنت مستعداً أن أتنازل عن شرف المملكة وأنا ضاحك ... لكنى أنا أحبك وأنت لا تحبنى ، وهذا هو كل الفرق ... (أسنانه مطبقة ، ووجهه يتصلب ، قائلا بصوت مكتوم) أشكر لك على كل حال هذه الهدية الأخيرة التى تقدمها لى بتخليك

عنى ... ولسوف أتعلم كيف أكون وحيداً ... (يخرج ، ويخفت النور . خدم يرفعون الأثاث . ويعود النور على ديكور الأعمدة ، خالياً . كنيسة عارية . رجل نصف متوار تحت معطف داكن ينتظر وراء عمود . إنه الملك . النغمات الأخيرة من أرغن . يدخل جلبرت فوليوت ، أسقف لندن ، متبوعاً باكليروسه ، عائداً من قداسه . يعترضه الملك(أيها الأسقف ....

جلبرت فوليوت : (بعد تراجع) ماذا تريد يا رجل ؟ (يهم إكليروسه بالفصل بينهما) الملك !

الملك : أجل .

جلبرت فوليوت : وحيد ، بلا حرس ، وفى ملابس فارس صغير ؟ !

الملك : وهو مع ذلك الملك . أريد أيها الأسقف أن أعترف .

جلبرت فوليوت : (بادرة حذر) أنا أسقف لندن ، وعند الملك من يتولى تناول اعترافه . وهى وظيفة هامة فى البلاط ولها امتيازاتها !

الملك : إن اختيار القسيس للاعتراف المقدس هو اختيار حر يا أسقف ، حتى بالنسبة للملوك ! (جلبرت فوليوت يشير إلى إكليروسه فيبتعد) ثم إن اعترافى سيكون قصيراً ، وليس الغفران هو ما جئتك فى طلبه ... أيها الأسقف ، إنى أتيت أمراً أخطر جداً من خطيئة : حماقة ... (يظل جلبرت فوليوت صامتاً)

لقد فرضت توماس بيكيت على اختياركم فى مجلس كلاريندون ، وأنا على ذلك من النادمين !

جلبرت فوليوت : (غامضاً) ولقد خضعنا أمام تدخل الملكية !

الملك : كرهاً ! ... أعرف هذا ... لقد احتجت إلى ثلاثة عشر أسبوعاً من السلطة ومن الصبر للقضاء على المعارضة الصغيرة العنيدة التى كنت أنت أيها الأسقف زعيمها ... لقد كنت فى نضارة الشباب يوم انعقاد المجلس ، وقيل لى إنك فيما بعد مرضت مرضاً خطيراً

جلبرت فوليوت : (مغلقاً) وشفانى الله .

الملك : ما أطيبه ! وإن يكن به بعض الميل إلى عدم الاهتمام إلا برجاله ! . لقد تركنى أنا مريضاً ، وعلى أن أعالج نفسى بنفسى ، بدون تدخل إلهى ... كبير الأساقفة راكز على معدتى ! لقمة ضخمة ينبغى أن أقيئها ... ما رأى الاكليروس النورماندى فيه ؟

جلبرت فوليوت : (متحفظاً) يبدو أن نيافته قد أمسك بيد حازمة أعنة كنيسة انجلترا ؛ بل إن الذين يقتربون منه فى حياته الخاصة يقولون انه يسلك سلوك رجل مقدس .

الملك : (يهتف ، معجباً بالرغم منه) هذا شىء مفاجىء بعض الشىء ، لكن لا شىء يدهشنى منه ! ... الله أعلم بما يقدر عليه ذلك الحيوان ، فى الخير وفى الشر ... لنتكلم بصراحة يا أسقف : هل الرجال المقدسون يهمون الكنيسة كثيراً ؟

جلبرت فوليوت : (ظل ابتسامة) الكنيسة منذ عهد بعيد يا صاحب السمو عندها من الحكمة ما يجعلها لا يفوتها أن تلاحظ أن إغراء القداسة كان بالنسبة لقسسها من أبرع شراك الشيطان وأخطرها ... إن إدارة مملكة الأرواح ، بكل ما تتضمنه من تغيرات زمنية ، تتطلب قبل كل شىء – مثل كل الادارات – مديرين ... وللكنيسة الكاثوليكية الرومانية قديسوها ، وهى تتوجه إليهم سائلة شفاعتهم الحانية ، وتتضرع إليهم ، لكنها لم تعد فى حاجة إلى صنع المزيد منهم ... هذا زائد عن الحاجة ... وخطر ...

الملك : إنك تبدو لى أيها الأسقف رجلا يمكن الكلام معه ... لقد جهلت قدرك ... الصداقة كانت تعمينى ...

جلبرت فوليوت : (مغلق دائماً) الصداقة شىء جميل .

الملك : (إنسانياً فجأة) هى حيوان مستأنس ، حى وحنون ، يبدو كما لو لم تكن له غير عينين مستقرتين عليك باستمرار ، تدفئانك ، ولا نرى أسنانه ... لكنه حيوان ذو خاصية غريبة ، فهو لا يعض إلا بعد أن يموت ...

جلبرت فوليوت : (حذراً) صداقة الملك لتوماس بيكيت ماتت يا صاحب السمو ؟

الملك : فجأة يا أسقف . نوع من السكتة القلبية .

جلبرت فوليوت : إنها ظاهرة غريبة يا صاحب السمو ، لكنها منتشرة !

الملك : (يأخذ فجأة بذراعة) أنا الآن أيها الأسقف أكره بيكيت ... لم يعد بين هذا الرجل وبينى شىء مشترك إلا هذا الحيوان الذى ينهش أحشائى ... لم أعد أقوى على احتماله ... يجب أن أطلقه عليه ... لكنى الملك ، ويحرجنى ما اتفق على تسميته بعظمتى ... لهذا أنا فى حاجة إلى شخص ...

جلبرت فوليوت : (يتطلب) لا أريد أن أخدم إلا الكنيسة .

الملك : لنتكلم كولدين كبيرين ... لقد كان ذراع أحدنا فى ذراع الآخر عندما غزونا انجلترا ونهبناها وفرضنا عليها الفدية ... صحيح أننا نختصم ويحاول كل منا أن يختلس من الآخر دريهمات ، لكن مهما يكن من شىء فان بين السماء والأرض مصالح مشتركة ... أتعرف ما حصلت عليه من البابا ؟ إنه يبارك ذهابنا لذبح إيرلندة الكاثوليكية ، باسم الدين ! ... أجل ، نوع من الحرب الصليبية ، لنفرض هناك إكليروساً وبارونات نورمانديين ، بسيوف ورايات بوركت باحتفال مهيب ، كما لو كنا ذاهبين لالتهام الأتراك !. وبشرط واحد : قطعة فضية صغيرة ضريبة عن كل بيت ، ومرة فى السنة ، لصدقات القديس بطرس التى كان الاكليروس الوطنى الايرلندى يماطل فى دفعها ، والتى وعدت أنا بأن أجعلهم يسددونها ...

شىء بتراب الفلوس ، لكنه فى نهاية السنة سيكون مبلغاً كبيراً ... إن روما تحسن تقدير ثرواتها !

جلبرت فوليوت : (مروعاً) هناك أشياء لا ينبغى التفوه بها أبداً يا صاحب السمو ، بل إنه لينبغى أن يحاول المرء تجاهلها ما دام ليس مكلفاً بها على نحو مباشر !

الملك : (يبتسم) نحن وحدنا أيها الأسقف ، والكنيسة خالية .

جلبرت فوليوت : الكنيسة لا تكون خالية أبداً ، إذ يتوقد فيها دائماً مصباح صغير أحمر أمام المذبح الرئيسى .

الملك : (نافد الصبر) يا أسقف ! أنا أحب أن ألعب ، لكن مع أولاد فى مثل سنى ! لعلك لا تحسبنى واحداً من نعاجك أيها الراعى الصالح ؟ إن ذلك الذى يتنوم به ذلك المصباح الصغير الأحمر قد قرأ منذ عهد بعيد أعماقى وأعماقك ، وطمعك وحقدى معروفان له على نحو دقيق ! (ينطوى جلبرت فوليوت على نفسه ، فيصبح فيه الملك فى ضيق) أو فلتذهب لتجعل من نفسك راهباً أيها الأسقف ، تربط حزاماً من شعر الخيل حول ظهرك العارى وتذهب لتختبىء فى دير لكى تصلى ! ... إن أسقفية لندن – بالنسبة لابن ملاح من ملاحى التيمز يكون نقى القلب – إما أن تكون أكبر منه أو يكون هو أكبر منها !

جلبرت فوليوت : (شاحب الوجه كالرخام . بعد سكتة) إذا تجردت . كما هو واجبى ، من عواطفى الشخصية ، فانه

ينبغى على أن أقرر أن مولاى كبير الأساقفة لم يأت
حتى الآن شيئاً فى غير مصلحة أمه الكنيسة .

الملك : (يتفحصه ، ويختتم فى طرب) عرفت قصدك يا
صديقى الصغير ، وتنوى أن تكلفنى غالياً جداً ! ...
لكنى غنى ، بفضل بيكيت الذى نجح فى جعلكم
تدفعون ضريبة التخلف عن الخدمة فى الجيش ،
ويبدو لى باختصار أن مما يرضى الأخلاق أن يعود
جزء من ذهب الكنيسة إلى الكنيسة ، عن طريقك
ثم إنك ، أيها الأسقف المبجل ، إذا أردنا أن نظل
على أرض الأخلاق ، تستطيع أن تقول لنفسك
أيضاً أنه نظراً للارتباط الوثيق بين عظمة الكنيسة
وعظمة الدولة ، فانك فى آخر الأمر إنما تدعم الدين
الكاثوليكى عندما تعمل فى خدمتى !

جلبرت فوليوت : (يتفحصه ، بفضول) لقد كنت أعتبر سموك دائماً
فتى كبيراً خشن الطبع ، خارجاً لم تتخلص تماماً من
المراهقة ، ولا هم له غير مسراته .

الملك : إننا نخطىء أحياناً فى حكمنا على الرجال يا أسقف ...
أنا أيضاً أخطأت (يصيح فجأة) آه يا توماس !

جلبرت فوليوت : (يصيح) أنت تحبه يا صاحب السمو ! ما زلت تحبه !
أنت تحب هذا الخنزير المتوج الهامة بتاج الأسقفية
الأعلى ، هذا المحتال ، هذا الهجين السكسونى ،
هذا الوغد الصغير !

الملك : (يثب عليه صارخاً) أجل ، أحبه ! لكن هذا
لا يعنيك أيها القسيس ! ... إنى لم أفض إليك إلا
حقدى ... وسأدفع لك ثمن تخليصى منه ، لكن
إياك أن تقول لى عنه كلمة سوء ، وإلا كان ذلك
مدعاة لتزال بيننا !

جلبرت فوليوت : (مختنقاً ، يئن) أنت تخنقنى يا صاحب السمو !

الملك : (يفلته فجأة ، ويختتم بلهجة مغايرة) سنتقابل غداً
يا سيدى الأسقف ونحدد معاً تفاصيل عملنا .
ستدعى رسمياً إلى القصر بحجة أعمال الخيرية فى
أسقفية لندن التى تترأسها والتى أعتبر فيها رعيتك
الأولى ، لكن الفقراء لن يكونوا موضوع كلامنا ...
لديهم براح من الوقت إن المملكة التى يتمنونها ،
هم ، هى مملكة الخلود !

يخرج الملك

يظل جلبرت فوليوت جامداً ، وينضم إليه
إكليروسه على استحياء .

يأخذ صليبه ويخرج بوقار ، فى موكب ، وإن
كان أحد كهنته يعدل له فى الخفاء قلنسوته التى كانت
قد ظلت محتفظة بوضعها المقلوب منذ الاشتباك .

بعد خروجهم يحدث تغير فى الاضاءة وفى الستائر
بين الأعمدة ، ونحن فى قصر الأسقفية ذات صباح .
يدخل قسيس يقود راهبين والراهب الصغير نزيل

ديرها ستنجز .

القسيس : سيستقبلكم صاحب النيافة هنا .

الراهبان يشعران بالرهبة ، ويهزان الراهب الصغير قليلا .

الراهب الأول : استقم فى وقفتك ، وقبل خاتم صاحب النيافة ، وحاول أن تجيب بتواضع على أسئلته ، وإلا فالويل لردفيك !

الراهب الثانى : لعلك اعتقدت أنه نسيك ؟ . إن العظماء لا ينسون شيئاً . وسنرى إن كنت تحتفظ أمامه بخيلائك .

يدخل بيكيت مرتدياً ثوباً بسيطاً خشناً .

بيكيت : حسناً يا إخوتى ، هل الجو جميل فى هاستنجز ؟

يقدم إليهم خاتمه لتقبيله.

الراهب الأول : الضباب ، يا صاحب النيافة .

بيكيت : (يبتسم) إذن فالجو جميل فى هاستنجز ... نحن نذكر دائماً أبرشيتنا بالحنين ، وفى عزمنا أن نذهب فى وقت قريب لزيارتها ، عندما تترك لنا أعباء منصبنا الجديد لحظة للراحة ... كيف كان سلوك هذا الشاب ؟ هل أتعب أبانا القسيس ؟

الراهب الثانى : هو بغل حقيقى يا صاحب النيافة ! ... أبونا القسيس جرب معه الرقة طويلا ، طبقاً لوصيتكم ، لكن سرعان ما لزمه استخدام الحبس الانفرادى والخبز الحاف بل القمح ... وما من علاج أجدى معه ...

هذه الرأس الخشبية باقية على حالها . والسباب على شفتيه ... لقد سقط فى خطيئة الكبرياء ، وما من يد منقذة تنتشله منها .

الراهب الأول : ربما أجدى الركل فى ردفيه ، إذا أذنت لى فخامتكم فى هذا التعبير ! (للصغير) استقم فى وقفتك !

بيكيت : (للصغير) اسمع كلام أخيك ... استقم فى وقفتك ... إن خطيئة الكبرياء فى العادة ترفع الهامة ... انظر إلى فى وجهى (الصغير ينظر إليه) هذا أحسن (بيكيت يلتفت إلى الراهبين بعد أن نظر إلى الصغير برهة) سيقودونكما إلى المطبخ لتأكلا قبل العودة يا أخوى . وعندهم هناك أمر بأن يحسنوا معاملتكما ... ولا تخجلا ، فنحن نعفيكما اليوم من نذر الصوم . ونحسب أنكما تشرفان أكلتنا ... واحملا فى يسوع التحية منا إلى الأب رئيسكما .

الراهب الثانى : (متردداً) والغلام ؟

بيكيت : نحتفظ به .

الراهب الثانى : فليحذر صاحب النيافة فهو فتى شرير !

بيكيت : (يبتسم) نحن لا نخاف (يخرج الراهبان ، ويظل بيكيت والصغير وحدهما ، وجهاً لوجه) لماذا لا تكاد تقوى على الاعتدال ؟

الراهب الصغير : لم أعد أريد النظر إلى أحد فى وجهه .

بيكيت : سأعلمك . سيكون هذا هو درسنا الأول . انظر إلى

(الصغير ينظر إليه نظرة جانبية) أحسن من هذا
(الصغير ينظر إليه) هل ما تزال تحمل وحدك عار
انجلترا ، وهذا العار هو الذى يحنى ظهرك ؟

الراهب الصغير : أجل .

بيكيت : وهل يكون حملك أخف إذا أخذت عنك نصفه ؟
(يشير إلى القسيس) أدخل أصحاب النيافة (يخرج القسيس . يفضى إلى الصغير وهو يبتسم) هذه ساعة مجلسى مع أصحاب النيافة الأساقفة . وسترى أن الوحدة ليست امتيازاً موقوفاً عليك .

الراهب الصغير : أنا بالكاد أعرف القراءة والكتابة ، وإن أنا إلا ابن فلاح ، حلقت قمة رأسى فراراً من عبودية الأرض، ففيم يسعنى أن أفيدك ؟

بيكيت : (يبتسم) أنا فى حاجة إليك ، وهذا يجب أن يكفيك . أسألك فقط أن تنظر إلى كما تنظر إلى فى هذه اللحظة ... هناك من يلبس خشن الثياب لكى يتذكر دائما ماتساويه أسماهم (يفتح ثوبه الكهنوتى ، مبتسما) وها أنا ارتدى واحداً ، لكن تجاربكم تافهة ، فلقد تعودت عليه ... كل مافى الأمر أنى أعتقد ببساطة أنى إذا تخليت عنه سآخذ زكاماً ... إنى فى حاجة إلى شىء آخر يحك جلدى ويذكرنى فى كل لحظة بحقيقتى ... إنى فى حاجة إليك أيها الحسك الصغير الذى أعرف من أى طرف أتناوله ... إنى فى حاجة إلى أن أشك

نفسى بك لكى أجد بضع أشواك على طريق الخير ، وإلا لم أجد فيه إلاما وجدته حتى الآن من متعة ...
(يدخل الأساقفة، فيأخذ بذراعه ويجلسه فى ركن) امكث فى هذا الركن وسجل ملاحظاتى ؛ ولا أطلب منك غير شىء واحد لا تثب فى وجوههم وإلا عقدت الأمور.
(يشير إلى الأساقفة الذين يظلون واقفين .

جلبرت فوليوت : (يبدأ) يا صاحب النيافة ! إن مجلسنا عرضة لأن يكون بلاموضوع . لقد شئت ، مخالفاً مشورتنا ، أن تهاجم الملك وجهاً لوجه . وها هو الملك يسارع بالرد حتى قبل أن تعلن على الملأ قرارات الحرمان الثلاثة التى طلبت إلينا أن نصدق عليها ... إن وزير بلاطه ريشار دى لامى موجود فى غرفة الانتظار يلتمس رؤيتك باسم الملك ، وهو يحمل أمر إعلاما رسميا مسند فى الشروط بإعطائك مهلة يوم واحد لتحضر أمام مجلسه الكبير المجتمع فى هيئة محكمة قضائية .

بيكت : بم يتهمنى الملك ؟

جلبرت فوليوت : بالاخلال بواجبات المنصب بعد أن تولى مجلسه الخاص فحص الحسابات ، فإن سموه يطالبك بمبلغ ضخم ما يزال مطلوباً للخزانة من وقت إدارتك لها .

بيكت : لقد عهدت بسجلاتى عند تركى وزارة الخزانة لوزير

بلاطه الذى أعطانى مخالصة ، معلناً أنى خالص الذمة
من كل محاسبة أومطالبة . فبماذا نطالب الملك ؟

أسقف أكسفورد : أربعون ألف مارك من الذهب الخالص .

بيكيت : (يبتسم) أعتقد أن مثل هذا القدر من المال لم يكن
قط موجوداً فى كل خزائن انجلترا خلال الفترة التى
كنت فيها وزيراً للخزانة ، لكن يكفى للتلفيق كاتب
حاذق ! ... لقد ضم الملك قبضته وأنا كالذبابة فى
قبضته (يبتسم) وهو ينظر اليهم أشعر أيها السادة
أنكم لابد تحسون شيئا يشبه الارتياح .

أسقف يورك : نصحناك بتجنب الصراع المكشوف .

بيكيت : إن جيوم داينسفور — مدفوعاً من الملك ، بحجة
أنه لا يقر اختيارى — قد فتك بالقسيس الذى عينته
عند سيادته ... هل يجب على أن أترك قسس يضربون
حتى الموت ؟

جلبرت فوليوت : ماكان لك أن تعين قسس اقطاع حر ! ولا يوجد
نورماندى ، من رجال الدين ومن غيرهم ، يقبل
هذا ... إن معنى هذا هو طرح قضية الغزو نفسه
للمناقشة ... وكل شىء يمكن بحثه فى انجلترا ماعدا
واقعة ، أنها غزيت وقسمت فى سنة ألف وست وستين .
إن انجلترا هى بلد القانون والاحترام المتشدد للقانون ،
لكن القانون لا يبدأ إلا من ذلك التاريخ ، وإلا
لما أصبح لانجلترا وجود .

بيكيت : أيها الأسقف ، هل ينبغى على أن أذكرك بأننا رجال
الله وأن واجبنا هو الدفاع عن شرف لا يرتبط بتاريخ؟

أسقف أكسفورد : (برفق) لقد كان مافعلت سوء تصرف واستفزازاً ،
إذ أن جيوم داينسفور هو رفيق الملك .

بيكيت : (يبتسم) إنى أعرفه جيداً . إنه جذاب . ولقد أفرغت
أكثر من إبريق معه !

أسقف يورك : (يعوى) وأنا ابن عم زوجته !

بيكيت : هذا تفصيل آسف له يا سيدى الأسقف ، لكنه فتك
بواحد من قسسى ، وإذا لم أرافع عن قسسى فمن
يدافع عنهم ؟ . إن جلبير دى كلار قام بمحاكمة
واحد من الاكليروس ينتمى إلى اختصاصنا القضائى
وحده .

أسقف يورك : وياله من ضحية ممتعة حقاً ! وكم كان يستحق
أن نقاتل من أجله ! ... إن الدجل كان متهما بالقتل
الاعتداء على العرض ... ألم يكن أقرب إلى الفطنة
أن يترك هذا التعس يفيض عليه وقد كان يستحق حبل
المشنقة مائة مرة ، وأن تحظى بالسلام ؟

بيكيت : « ماجئت لأحمل السلام بل الحرب » ، لابد أن
نيافتك قد قرأت هذا فى مكان ما ؟ ... لا يعنينى
أن أعرف التهم التى وجهت إلى ذلك الرجل ...
إنى إذا تركت قسسى يحاكمون أمام محكمة مدنية
إذا تركت روبير دى فير — كما فعل مؤخراً فى أحد

أديرتنا – ينتزع واحداً من رجالنا الحليق الرءوس، بحجة أنه واحد من رقيقه هرب من أرضه ، فانى يا أصحاب النيافة لاأضمن حريتنا ولا وجودنا بعد خمس سنوات ... لقد أصدرت قرار – الحرمان – جلبرت دى كلار وروبرت دى فير وجيوم داينسفيرد. إن مملكة الله تدافع عن نفسها مثل كل الممالك ... اتعتقدون آن القانون يكفى أن بظهر لينال كل ما يريد لمجرد بزوغ طلعته ؟... إنه يصبح لاشىء بدون القوة ، عدوته القديمة .

أسقف يورك : أية قوة ؟ علينا ألا نكتفى بالكلام إن الملك هو القوة وهو القانون !

بيكيت : هو القانون المكتوب ، لكن هناك قانونا آخر ، غير مكتوب ، ينتهى دائماً بأن تنحنى له هامات الملوك (ينظر إليهم لحظة فى صمت ، مبتسما) لقد كنت فاسقاً أيها السادة ، وربما عربيدا ، رجلا من هذا العالم على أية حال . كنت أعبد لذة العيش وكنت أسخر من كل هذا ، لكن ما كان ينبغى إذن أن يوضع الحمل على كاهلى. أما الآن وقد حملته ، فقد شمرت أكمامى ولن يحملنى أحد على أن أتخلى عنه .

جلبرت فوليوت : (ينبرى وهو يزيد من الغضب ، ويسعى اليه) أتعرف فيم يستخدم فى الحقيقة – التطبيق الصارم للسلطة القضائية الكنسية ؟ فى سرقة – وأقولها فعلا ، فى سرقة – الرقيق السكسونى من سادته ... بفضل هذا القانون ، يستطيع ابن فلاح من أهل البلد أن يتملص من خدمة الأرض بأن يحلق قمة رأسه ... ضربتا مقص ، وصلاة ، وإذا بالسيد قد نشل منه واحد من رجاله دون أن يكون له الحق فى أى محاولة لاسترداده .. إنه لم يعد يتبع سلطته القضائية ولا سلطة الملك ..أهى عدالة أم لعبة من لعب الحواة ؟ أليست الملكية أيضاً مقدسة؟ هل تمنع الملاك – لو سرق منهم ثور – من الشكوى ومن محاولة استرداده ؟

بيكت : (يبتسم) أيها الأسقف ، إن حماستك فى الدفاع عن كبار الملاك النورمانديين لرائعة ، لاسيما وأنى أعتقد أنك لست منهم ... لكنك تنسى نقطة – نقطة لها أهميتها بالنسبة لقسيس – وهى أن الرقيق السكسونى له روح ، روح يمكن أن تهدى إلى الله ، وليس كذلك الثور .

جلبرت فوليوت : (خارجاً عن طوره) لا تصغرن نفسك أكثر مماأنت صغير ياتوماس بيكيت . إنك أنت أيضاً ، بالرغم من أصلك ، طالما استفدت من هذه الحالة ، والأولى إذن أن يكون بك بعض الحياء الآن وأنت تهاجمها .. إن من يمس الملكية الانجليزية يمس المملكة ، ومن! يمس المملكة فهو فى نهاية الحساب يمس الكنيسة والدين ينبغى أن يغطى لقيصر ...

بيكيت : (مقاطعاً إياه) ... ما لقيصر يا أسقف، لكن عندما يريد قيصر أن يأخذ شيئاً آخر، ينبغي أن نشمر ثيابنا الكهنوتية ونصارع قيصر بأسلحة قيصر ... وأنا أعرف مثلك تماماً أن معظم رقيق الأرض الذين يلوذون بأديرتنا لا يفكرون في غير الخلاص من عبوديتهم ... لكني أضع كل شيء موضع المناقشة — من جديد أمن الكنيسة كلها، وحياتي نفسها — لو أن في كل مائة ألف يخادعون، يوجد رفيق سكسوني صغير واحد مخلص منعوه من القدوم إلى الله.

يتبع هذا الانفجار سكون.

يبتسم جلبرت فوليوت . .

جلبرت فوليوت : إن الإشارة إلى الشاة الشاردة تحظى دائماً بالنجاح... ومن الممكن دائماً يا صاحب النيافة تنميق العبارات الجميلة في موضوع مؤثر، لكن السياسة شيء آخر.. وقد أثبت أنك تعرف هذا معرفة كاملة.

بيكيت : (جافاً) لقد أثبت لك ذلك عندما كنت أزاول السياسة، لكن لم أعد أشتغل بالسياسة.

أسقف أكسفورد : (برفق) يبدو لي مع ذلك، في هذه المملكة الأرضية الكبيرة التي تصعب المحافظة على التوازن فيها — والتي نعتبر نحن أحد أعمدتها — أن من الحكمة، ومن المناسب للأحوال الانسانية، أن لا نعارض معارضة قاطعة في الرجوع إلى موافقة السيد عندما

يريد أحد الرقيق أن ينتمي إلى الكنيسة ... من المؤكد أن على الكنيسة واجب الدفاع المستميت عن أولادها، ولكن لا ينبغي عليها قط، وبأية حجة، أن تتخلى عن حكمتها ... إسمعها كلمة من قسيس عجوز!

بيكيت : (برفق) إني لم أكن حكيماً عندما قبلت الأسقفية العليا ... ولم يعد لي الآن الحق في أن أكون حكيماً، على الأقل على النحو الذي تفهمونه. وأشكر نيافتكم، وقد رفع المجلس، لقد اتخذ قراري وهو الابقاء على قرارات الحرمان الثلاثة. (يشير إلى القسيس) أدخل وزير البلاط (يدخل حارسان يتقدمان رتشارد دي لاسي وتابعه. بيكيت يقصده باسماً) ريشارد دي لاسي، لقد كنا خير رفيقين فيما مضى، وكنت دائماً تجد الخطة تغيرت طويلة بعض الشيء عندما تكون قد أزفت ساعة الذهاب للعشاء، وسأكون ممتناً لك إذا وفرت على موعظتك أنت!... إن قراءة إعلان الحضور هذا من الأصول المرعية، لكني لمعرفتي بشخصينا أعرف أنها ستضايقنا وسوف أستجيب لانذار الملك.

تنقفل الأستار. رنين أبواق بعيدة. يظهر الملك بازعاً من الأستار، ومتطلعاً إلى شيء ما من فرجة الستار. فترة ثم يدخل جلبرت فوليوت فجأة.

الملك : حسناً؟ مكاني غير مناسب. لا أرى شيئاً.

جلبرت فوليوت : المحاكمة ماضية فى إجراءاتها صاحب السمو . وقد تم إعلانه للمرة الثالثة ، ولم يحضر . لن يلبث أن يحكم عليه غيابياً . وعميدنا أسقف شيشستر ، بمجرد ثبوت التهمة ، سيواجهه ويعلن له ، استناداً إلى نصوص ميثاق كنيسة انجلترا القديمة، استنكارنا كهيئة ، وهو يعفينا من الساعة له ، ودعوته إلى المثول بين يدى سيدنا البابا ... وهنا أنبرى ، أنا أسقف لندن ، متكلماً باسمى الشخصى ، داعياً بيكيت بـ «كبير الأساقفة الأسبق » ومجرداً إياه لأول مرة من لقبه ، ومتهما إياه علناً بأنه أقام ، بدون اعتبار للملك ، قداسا شيطانيا لاستحضار روح الشر .

الملك : (قلقاً) أليس هذا مبالغاً فيه قليلا ؟

جلبرت فوليوت : بلى ... ولن تخدع أحداً ، لكنها تنجح دائماً ... ولسنا واهمين بشأن نتيجة هذه النقطة التفصيلية ... وفى هذا الوضع الأدنى الذى سيجد نفسه فيه نتيجة لهذا الاتهام القاطع ، والذى سيتلو فى الحال خروجنا عن طاعته ، ستظهر سموكم أمام محكمتكم إما بأن تنيبوا عنكم وزير البلاط أوبشخصكم – وهو ما يكون أفضل – وتطلب من باروناتك وقساوستك المجتمعين أن يخلصوك من الحنث باليمين ... فى الإمكان أن ينتهى كل شىء اليوم .. هل الصيغة مع سموكم ؟

سأظهرها فى اللحظة المناسبة .

الملك : (يخرج رقاً من جيبه) «ليصغ جميع الحاضرين هنا إلى طلبى الملكى . نسألكم بحق الإيمان الواجب عليكم نحونا أن تأخذوا إلى حق من بيكيت رئيس الأساقفة الأسبق ، الذى هو رجلى المرتبط بى بعهد الولاء ، والذى أعلنته حسب الأصول لكنه يرفض أن يحضر أمام محكمتى » – قراءتى سيئة جداً .

جلبرت فوليوت : لا ضير من ذلك ... ما من أحد يصغى إلى هذا النوع من البلاغات ... والجمعية ستنعقد بعد ذلك إلى أخذ الأصوات ، بالترتيب ، وسيكون حكمها بالسجن . والحكم مكتوب من الآ ن .

الملك : بالإجماع ؟

جلبرت فوليوت : كلنا نورمانديون . أما الباقى فهو على سموك . ومايبقى بعدها إلا التنفيذ .

الملك : (يعتريه شىء كالضعف ، فجأة) آه ياتوماس !

جلبرت فوليوت : (كأنما قدمن رخام) ما زلت أستطيع أن أوقف الآ لة ، يا صاحب السمو !

الملك : (كأنه يتردد . ثم يقول) كلا . نفذ .

يخرج جلبرت فوليوت .

الملك يعود إلى مكانه وراء الستار.

الملكتان تتسللان إلى القاعة وتنظران هما أيضاً من فرجة الستار ، بالقرب من الملك .

بعد لحظة تسأل الملكة الشابة :

الملكة الشابة : هل هو هالك ؟

الملك : (بصوت مكتوم) أجل .

الملكة الشابة : أخيراً !

الملك يتخلص من الستار ويتفحصها فى كراهية .

الملك : (صائحاً) إنى أمنعك من أن تبتهجى !

الملكة الشابة : بهلاك عدوك !

الملك : (مزبداً) إن بيكيت عدوى ، لكنه فى ميزان المخلوقات ، هو الهجين ، العريان كما ولدته أمه ، يزن قدر وزنك ألف مرة يا مدام ، ومعك تاجك وكل مجوهراتك ، وأبوك رفيع المقام فوق البيعة !... إن بيكيت يهاجمنى ، ولقد خاننى ، وأنا مضطر للقتال ضده وتحطيمه ، لكنه هو الذى أعطانى ، بيدين مليئتين ، كل ما هو طيب فى نفسى ... أما أنت فما أعطيتنى قط شيئاً ، إلا تفاهتك اللحوحة ، واهتمامك الدائم بشخصك الحقير الضئيل ، وامتيازاتك لهذا أمنعك من الابتسام وهو يموت !

الملكة الشابة : (مستفزة) لقد أعطيتك شبابى وأولادك !

الملك : (مستمراً فى الصياح) أنا لا أحب أولادى ! أما عن شبابك ، تلك الزهرة الذابلة منذ عامك الثانى عشر بين صفحات كتاب الصلوات ، وقد جف ماؤها وشحب عبيرها ، فما عليك إلا أن تودعيه بغير أسف ! ... ولعل التعصب والشر يخلعان عليك

وأنت تشيخين شيئا من الأصالة ! ... إن بطنك يا مدام كانت صحراء قاحلة ، وكان على أن أتوه فيها وحيداً ، بحكم الواجب ! ... لكنك ما كنت إمرأتى يوما ! أما بيكيت فكان صديقى ، كان مفعما بالقوة والسخاء والدم . (تهزه زفرة باكية ، ويصيح) آه يا توماس الغالى !

الملكة الأم : (تتقدم ، شامخة) وأنا ياولدى ، ألم أعطك شيئاً أنا الأخرى؟

الملك : (يثوب إلى رشده قليلا ، محدق فيها ويقول بصوت مكتوم (الحياة . نعم . وشكراً لك ياسيدتى . لكنى بعد ذلك لم أكن أراك إلا من خلال بابين ، وأنت فى أبهة زينتك لحضور حفل راقص ، أو بالتاج ومعطف الهرمين ، عندما كنت تضطرين قبل الاحتفالات بعشر دقائق إلى أن تجلسينى بجانبك ... لقد كنت دائماً وحيداً ... ومامن أحد أحبنى على هذه الأرض غير بيكيت !

الملكة الأم : (تصيح ، لاذعة) حسناً ! استدعه ! امنحه عفوك ! مادام يحبك ، وأعطه كل السلطة ! ماذا تفعل فى هذه اللحظة ؟

الملك : أتعلم من جديد كيف أكون وحيداً ، فإنى يا سيدتى سيدتى معتاد على الوحدة . (يدخل وصيف لاهث) حسناً ، إلى أين وصلت الأمور ؟

الوصيف : يا مولاى ! لقد ظهر توماس بيكيت فى اللحظة التى

لم يعد أحد فيها ينتظره ، مريضاً وشاحباً ، فى ثوب
الكهنوت العظيم ، وحاملا بنفسه الصليب الفضى
الكبير ، واجتاز القاعة كلها دون أن يجرؤ أحد على
القبض عليه ... وعندما بدأ روبرت ، كونت لايستر
المكلف بقراءة الحكم عليه ، فى قراءة الصيغة المقررة ،
أوقفه باشارة ، قائلا إنه باسم الله يمنعه من إصدار
حكم علىه ، هو والده الروحى ، مستعيذاً بالحبر
الأعظم ومطالباً إياه المثول بين يديه ثم اخترق
الجمع مرة أخرى فأفسح له طريقة فى صمت ...
وقد رحل على التو

الملك : (لا يقوى على منع نفسه من الابتسام والصياح فى بهجة)
أحسست اللعب يا توماس (يسترد جأشه فجأةوهو
مضطرب ، ويسأل ؛ (وباروناتى ؟

الوصيف : كانوا كلهم يصرخون وأيديهم على أغماد السيوف :
«خائن ! سبه ! اقهضوا عليه ! أيها التعس ! إسمع
الحكم عليك ! » لكن مامن أحد جرؤ على الحركة
أو على أن يمس الرداء المقدس .

الملك : (يزأر) الأغنياء ! أنا محاط بالأغنياء ، والرجل
الوحيد الذكى فى مملكتى يقف ضدى !

الوصيف : (يختتم) وعند عتبة الباب ! استدار اليهم — ونظر
فيهم ببرود ، وكلهم فى اضطراب ، صارخين
عاجزين ، وقال لهم أنه كان فى وسعه إلى وقت غير

بعيد أن يرد بالسلاح على تحديهم له ، لكنه لم يعد
يسعه أن يفعل ذلك ، وإن كان يرجوهم أن يتذكروا
ذلك الزمن .

الملك : (متهللا) كلهم ! كان يهزمهم كلهم ! بالهراوة ، بالرمح
بالسيف ! ... وفى حلبة السباق كانوا يسقطون مثل
الأولاد فى الكتشينة !

الوصيف : (مختتما) وكانت نظرته باردة وساخرة ، هو الذى
لم يكن يحمل غير عصا الراعى ، حتى أنهم سكتوا
الواحد بعد الآخر ، وهنا فقط استدار وخرج .
ويقال إنه أعطى الأوامر فى فندقه بدعوة جميع
فقراء المدينة إلى العشاء الليلة .

الملك : (وقد عاوده التجهم ، يسأل أيضاً) وأسقف لندن
الذى كان يسحقه تراباً ؟ وصديقى الهمام جلبرت
فوليوت ؟

الوصيف : انتابته أزمة هياج فظيعة وهو يحاول عبثاً أن يهيج
الجميع ، وبدرت منه إهانات فظيعة ، ثم فى آخر
الأمر أغمى عليه ، وهو يعالج الآن .
الملك تستولى عليه فجأة نوبة ضحك مبتهج لا يريد
أن ينتهى ، ويتهاوى بين ذراعى وصيفه تحت نظرات
الملكتين المستنكرة ، دون أن يقوى على استرداد أنفاسه ،
وهو يضحك ، يضحك ...

الملك : آه ، ياللعجب ! يا للعجب ! ..

الملكة الأم : (باردة ، قبل أن تخرج) سيقل ضحكك غداً يا ولدى . إن بيكيت ما لم تمنعه سيعبر البحر الليلة ويلتجىء إلى ملك فرنسا ، ومن هناك يهزأ بك وهو ناج من العقاب !

الملك ، وحيداً ، يتوقف عن الضحك ، ويخرج فجأة وهو يعدو .

تتغير الإضاءة ، وينفتح ستار ، والمشهد الجديد فى قصر لويس ملك فرنسا . وهو جالس فى وسط القاعة ، معتدلا على عرشه . رجل ضخم له نظرة رقيقة .

الملك لويس : (لباروناته) أيها السادة ، نحن فى فرنسا وطظ فى ملك انجلترا ، كما تقول الأغنية !

البارون الأول : لا يسع جلالتكم أن ترفضوا استقبال سفراء فوق العادة !

الملك لويس : عاديين أوفوق العادة ، أنا أستقبل كل السفراء ، سأستقبلهم . هذه هى مهنتى .

البارون الأول : لقد مر أكثر من ساعة وهم ينتظرون فى غرفة الانتظار .

الملك لويس : (يشير) لينتظروا ، فهذه هى مهنتهم ! إنما خلق السفراء لكى يجلسوا فى غرف الانتظار ... وأنا أعرف ما سيطلبونه منى ...

البارون الثانى : إن تبادل تسليم الرعايا المارقين مجاملة واجبة بين أصحاب التيجان .

الملك لويس : يارجلى الطيب ، إن الرءوس المتوجة تلعب مهزلة المجاملات ، لكن الأمم نفسها لا ينبغى لها أن تفعل .. إن حتى فى اصطناع اللطف يتوقف عند مصلحة فرنسا.. ومصلحة فرنسا هى وضع كل العقبات الممكنة فى طريق انجلترا ، التى لا تحرم نفسها من وضع العقبات فى طريقنا ... وعندما يحدث عندنا تمرد صغير فى الجنوب ، نعثر دائماً فى جيوب المتمردين الذين نشنقهم على بضع قطع ذهبية عليها صورة ابن عمى الرشيق ... إن كبير الأساقفة هو قنبلة عند قدمى هنرى دى بلانتاجينيه ، فليعش كبير الأساقفة ! .. ثم إنى أستلطف هذا الرجل !

البارون الثانى : مليكى هو صاحب الأمر ... ومادامت سياستنا تسمح لنا بأن لا ننتظر شيئاً من الملك هنرى...

الملك لويس : السياسة الحسنة فى الوقت الحاضر هى التشدد ... تذكر مسألة مونميراى ... إننا لم نوقع السلام مع هنرى إلا مقابل شرط بالعفو الكامل غير المنقوص عن لاجئى بريتانيا وبواتييه الذين كان يطالبنا بتسليمهم اليه ، ومع ذلك قطعت رءوسهم كلهم بعد شهرين ... كان هذا شيئاً يتعلق بشرفى ، لكنى لم أكن وقتها قوياً بما فيه الكفاية ، فتظاهرت بأنى لم أعلم باعدام أولئك الرجال ، واستمر إسرافى فى الابتسام لابن عمى

الذى فى انجلترا ... لكن أحوالنا بحمد الله أحسن ،
وهو اليوم المحتاج إلينا ... لذلك سأتذكر بشرفى !..
إن الملوك قوم مساكين ليس لديهم متسع من الوقت
لكى يكونوا شرفاء إلا مرة واحدة كل مرتين !...
أدخلوا السفراء !

يخرج البارون الأول ويعود مع جلبرت فوليوت والكونت داروندیل .

البارون الأول : ليأذن لى صاحب الجلالة فى تقديم المبعوثين فوق العادة لصاحب السمو هنرى ملك انجلترا ، نيافة أسقف لندن والكونت داروندیل .

الملك لويس : (بإيماءة ودية للكونت) أحييك يا صاحب السعادة . ويؤسفنى أن المصاعب بين مملكتينا ــ التى ذللت الآن لحسن الحظ ــ قد حرمتنا طويلا من مسرة هذه المقابلات السلمية بين نبلائنا وقد علا منها شأنك أكثر من مرة . ومانسيت براعتك المدهشة فى مباريات كاليه . هل ما تزال لك تلك الضربة القوية بالرمح ؟

الكونت داروندیل : (ينحنى ، مشبعاً بالزهو) آمل ذلك يامولاى.

الملك لويس : ونحن نأمل أن تسمح لنا علاقاتنا الطيبة مع سيدك اللطيف بأن نقدر براعتك حق قدرها عما قريب ، بمناسبة الأعياد القادمة ... (يكون جلبرت فوليوت قد فرد الرق فى يده) ياسيدى الأسقف ! أرى

أن معك رسالة لنا من مولاك . نحن مصغون إليك .

جلبرت فوليوت : (يعاود الانحناء ، ويبدأ فى القراءة) : « إلى سيدى وصديقى لويس ملك الفرنسيين ، من هنرى ملك انجلترا ودوق نورماندیا ودوق أكيتانيا وكونت آنجو. إعلم أن توماس الذى كان كبيراً لأساقفة كنتربرى ، بعد محاكمة علنية فى قصرى أمام الجمعية العامة لبارونات مملكتى ، قد ثبت عليه الاختلاس والحنث باليمين والخيانة لى . وأنه هرب بعد ذلك من مملكتى ، كما يفعل الخونة ، وبسوء نية لهذا أرجوك بالحاح أن لاتسمح لهذا الرجل المثقل بالجرائم ولا لأى أحد من أنصاره بالإقامة فوق أراضيك . ولا لأحد من أتباعك أن يقدم لأكبر عدو لى يد العون أو المساندة أو المشورة . إذ أنى أوكد أن أعداءك أو أعداء مملكتك لن يلقوا شيئاً من ذلك لا منى ولا من رجالى . وإنى أنتظر منك أن تساندنى فى الانتقام لشرفى وفى معاقبة عدوى كما تحب لى أن أفعل أنا نفسى من أجلك ، لودعت الحاجة » .

بعد الانتهاء من القراءة يحدث صمت .

يسرف جلبرت فوليوت فى الانحناء وهو يسلم الرق الى الملك ، الذى يطويه فى إهمال ويناوله لأحد باروناته .

الملك لويس : أيها السادة ، استمعنا بانتباه إلى طلب ابن عمنا اللطيف ،

وثلقيناه بالاهتمام . وستتولى مستشاريتنا تحرير الرد الذى سنسلمه لكم غداً . ولايسعنا فى التو واللحظة إلا أن نعبر لكم عن مشاعر دهشتنا ، إذ أننا لم نتلق أى نبأ عن وجود كبير أساقفة كنتربرى فى أراضينا.

جلبرت فوليوت : (حاسما) مولاى ، كبير الأساقفة الأسبق لاجىء إلى ديرسان مارتان بالقرب من سانت أومير.

الملك لويس : (محتفظ بلطفه) يا أسقف ! نحن نزهو بأن فى مملكتنا نوعاً من النظام ! ولو أنه كان فى بلدنا لكنا بكل تأكيد قد أحطنا بذلك علماً . (يشير بالانصراف، فينحنى السفيران ، ويخرجان متراجعين بظهريهما مع تأدية الانحناءات الثلاثة ، يقودهما البارون الأول. وفى الحال يقول لويس للبارون الثانى) أدخل توماس بيكيت ، واتركنا وحدنا .

البارون الثانى يخرج من باب ، ويدخل فى التو توماس ، فى ثوب راهب . توماس يركع باحدى ركبتيه أمام الملك البارون خرج .

الملك لويس : (برقة) إنهض يا توماس بيكيت وقدم إلينا التحية بوصفك كبير أساقفة انجلترا الأعلى . الانحناء يكفى . وإذا لم أكن مخطئاً فى فهمى لأصول الإتيكيت فإن لك الحق فى انحناءة رأس خفيفة من جانبى !...ها قد انتهينا من هذا ... ولو أن زيارتك كانت رسمية لكان من حقك أيضاً أن أقبل خاتمك ، لكنى أشعر أن زيارتك ليست رسمية ؟

بيكيت : (يبتسم) كلا يا مولاى . فما أنا إلا منفى .

الملك : (بلطف) هذا أيضاً لقب هام ، بنى فرنسا .

بيكيت : أخشى أن يكون هو اللقب الوحيد الذى فى لى . لقد صودرت ممتلكاتى .ووزعت على من خدموا الملك ضدى . وقد بعثت رسائل إلى كونت فلاندر وإلى كل باروناته توصيهم بالقبض على . أماجان أسقف بواتييه ، عندما حامت حوله شبهة أنه يريد إيوائى ، فقد تلقى جرعة سم .

الملك لويس : (محتفظ بابتسامته) أنت بالاختصار رجل خطر جداً ؟

بيكيت : (يبتسم) أخشى أن يكون الأمر كذلك !

الملك لويس : (بطمأنينة) نحن نحب الخطر يا بيكيت . وإذا بدأ ملك فرنسا يخاف من ملك انجلترا فان شيئا ما لن يستقيم أمره فى أوربا . نحن نشملك بحمايتنا الملكية فى أى مكان من أراضينا يطيب لك أن تختاره .

بيكيت : أشكر جلالتك بخشوع ، لكن من واجبى مع ذلك أن أقول لجلالتك إنى لا أستطيع شراء هذه الحماية بأى عمل معاد لوطنى .

الملك لويس : أنت تهيننا . وهذا الذى تقوله هوما عنيناه . صدق أننا نحن الذين نزاول مهنتنا منذ زمن طويل لا يمكن أن نرتكب أخطاء بهذه الفظاظة فى اختيار خونتنا ، وجواسيسنا . إن ملك فرنسا لن يطلب منك شيئا . لكن ... وأنت لا تجهل أن هناك دائماً ، لكن ، فى

السياسة . (بيكيت يرفع رأسه ، والملك ينهض بعناء مؤلم من عرشه ، على ساقيه الكبيرتين ، ويقصده فى غير كلفة) أنا لست مسئولا إلا عن مصالح فرنسا يا بيكيت ، إذا أنى فى الحقيقة لا توجد عندى الوسائل للالتزام بمصالح السماء ... فى شهر ، فى سنة ، يمكن أن أدعوك ثانية إلى هنا ، بنفس هذه الطريقة الطيبة ، وأقول لك إنه نظراً للتغير الذى طرأ على علاقاتى مع ملك انجلترا ، أرى لزاما على أن أطردك من البلاد (يربت على كتفه بمودة ، ملاطفا ، وعينه تلمع من الذكاء ويسأل ، مبتسما وحاسما) أعتقد يا كبير الأساقفة أنك بالطبع ، أنت أيضاً؟

بيكيت : (مبتسما هو أيضاً) أجل يامولاى ، ولم يمض على ذلك زمن طويل .

الملك لويس : (ببساطة) أنا أستلطفك جداً . لاحظ يا بيكيت أنى لا أقول لك إنك لو كنت أسقفا فرنسيا لما وضعتك فى السجن أنا أيضاً ! لكن لك فى الظرف الحاضر الحق فى حمايتى الملكية... هل تحب الصراحة يا بيكيت؟

بيكيت : أجل يا مولاى .

الملك لويس : إذن ستتفاهم بكل تأكيد . هل تنوى أن تذهب لرؤية الأب المقدس ؟

بيكيت : أجل يا مولاى ، إذا حصلت منكم على تصريحات المرور .

الملك لويس : سنحصل عليها . لكن ، نصحية من صديق – كلام فيما بيننا ، أليس كذلك ؟ – لا تدخلنى فى مشاكل مع روما ... وخذ حذرك من البابا ، إنه يبيعك بثلاثين ديناراً . إنه رجل فى حاجة إلى المال .

ينخفض النور ، ويسدل ستار .

يدفع أمامه ، على موسيقى صغيرة ، منصتان تحمل إحداهما البابا وتحمل الأخرى الكردينال .

البابا رجل ضئيل الحجم كثير الحركة ويخيل ، له لهجة ايطالية شنيعة . وبالقرب منه كردينال شديد السمرة ولهجته أشنع من لهجة البابا . وفى الجو المموه باللون الذهبى يبدو أن بمظهر صغير .

البابا : لا أوافقك يا زامبيللى موافقا بالمرة إن « التوليفة » كلها سيئة ، وقد نخسر فيها شرفنا مقابل ثلاثة آلاف مارك من الفضة !

الكردينال : أيها الأب الشديد القداسة ! إنه لا مجال على الاطلاق لفقدان الشرف ، بل لأخذ المبلغ الذى يعرضه ملك انجلترا ولكسب الوقت . إن فقدان المبلغ والرد السلبى العاجل لن يسويا شئون البابوية ولا شئون توماس بيكيت ، بل إنى لأخشى أن لا تخدم مصالح الكنيسة العليا . وأنا معك فى أن المبلغ ضئيل ، ولا يمكن أن يكون له وزن فى دفعنا إلى اتخاذ القرار ، لكن قبوله هو ببساطة حركة تهدئة لمصلحة السلام فى أوربا ،

وكان هذا دائماً الواجب الأعلى للمقر البابوى المقدس.

البابا : (مهموماً) إذا قبلنا المال من الملك فانى لا أستطيع أن أستقبل كبير الأساقفة الذى ينتظر مقابلة منذ شهر فى روما .

الكردينال : اقبل أيها الأب الشديد القداسة مال الملك واستقبل كبير الأساقفة ! أحدهما يعوض الآخر ! فقبول المال سينزع كل جانب هدام من المقابلة الممنوحة لكبير الأساقفة ؛ واستقبال كبير الأساقفة ، من جهة أخرى ، سيمحو مايمكن أن يكون فى قبول المال من هوان !

البابا : (معتمّا) لا رغبة لى فى استقباله . يبدو أنه رجل صادق . ودمى يفور من هؤلاء الناس . أنهم يتركون فى فمى طعماً مراً !

الكردينال : الصدق حسبة مثل أية حسبة أخرى ، أيها الأب الشديد القداسة ... يكفى أن يكون المرء مؤمنا بهذا المبدأ فلا يعود الصدق يضايقه ! ويحدث لى أن أستخدمه عند سنوح الفرصة ، فى بعض المفاوضات البالغة الصعوبة ، عندما تستبد بنا الحيرة ولاتعود المناورة تؤتى ثمارها ... وغالبا ما يسقط فى يد خصمى ... إنه يتصور صراحتى المخلصة خطة بارعة الدهاء ، ويضل طريقه ، ويقع فى الفخ ... لكن العقبة تنشأ طبعاً إذا عمد خصمك إلى الصدق فى نفس الوقت ، فإن اللعبة عند ذاك تغدو مربكة بشكل فظيع !

البابا : أتعرف بعد هذا الشهر الذى قضاه يذرع الأرض فى غرفة انتظارى ما يقال إنه ينوى أن يطلبه منى ؟

الكردينال : (مشرقاً) كلا أيها الأب الشديد القداسة !

البابا : (حركة نفاد صبر) زامبيللى ! لا مناورات معى ! إنه أنت من حمل إلى هذا الذى ينسب إليه !

الكردينال : (ممسوكاً بغلطته) عفوك أيها الأب الشديد القداسة ، كنت قد نسيت ! ... أو على الأصح كنت أفكر وقداستكم تلقون على السؤال أن قداستكم قد نسيتم السؤال نفسه ... وبمحض الصدفة ...

البابا : زامبيللى ! إذا ذهبنا نتحذلق فيما بيننا على غير طائل فلن نخرج من ذلك أبداً !

الكردينال : (مرتبكاً) مجرد حركة لا إرادية أيها الأب الشديد القداسة ، فاغفرلى !

البابا : يعتزم أن يطلب منى أن أعفيه من مهام ومقام كبير الأساقفة ، وهذا هو السبب فى وجود بيكيت فى روما ! وهل تعرف لماذا يريد أن يطلب منى هذا ؟

الكردينال : (صريحاً ، لمرة واحدة) أجل ، أيها الأب الشديد القداسة !

البابا : (متضايقاً) لا يا سيدى ! أنت لا تعرف ! إن الذى أخبرنى هو رابالو ، عدوك !

الكردينال : (متواضعاً) أجل ، لكنى مع هذا عرفت ، فان لى جاسوساً عند رابالو !

البابا : (يغمز بعينه) كيلوجراتى ؟

الكردينال : كلا . كيلوجراتى ليس جاسوسى إلا فى نظر سيده . مصدرى هو جاسوسى كيلوجراتى !

البابا : (باشارة قاطعة) يزعم بيكيت أن انتخاب كلاريندون لم يكن حراً ، وأنه مدين بتعيينه للنزوة الملكية وحدها ، وأن شرف الله ، الذى يريد هو الآن أن يكون بطله ، لا يسمح له نتيجة لهذا ، بحمل ذلك اللقب المغتصب ... إنه لم يعد يريد أن يكون إلا راهباً بسيطاً !

الكردينال : (بعد مهلة تفكير) هذا الرجل حقاً يقيناً فى غاية الطموح !

البابا : وهو مع ذلك يعلم أننا نعرف أن لقبه ومهامه هى درعه الوحيد ضد غضب الملك . ولا أشترى جلده غالياً عندما لا يعود كبيراً للأساقفة !

الكردينال : (مفكراً) لعبته بارعة ... لكننا نملك قوة كبيرة ، أيها الأب الشديد القداسة ، هى أننا لا نعرف بالدقة ما نريد ! ... من الغموض العميق فى خططنا تولد حرية مناورة مدهشة ! (لحظة تفكير ، ثم يهتف فجأة) عندى ، أيها الأب الشديد القداسة ، فكرة «توليفة» ! ... تتظاهر قداستكم بتصديق تورعه ، وتستقبله وتعفيه من لقبه ومن مهام منصب كبير الأساقفة ، ثم ، فى الحال ، ومكافأة له على حماسته فى الدفاع عن كنيسة انجلترا ، تعيد تعيينه

كبيراً للأساقفة ، بالصورة الشرعية الكاملة هذه المرة ... بذلك نتفادى التهديد ونسجل نقطة ضده — وفى الوقت نفسه نقطة ضد الملك .

البابا : اللعبة خطرة . والملك طويل الباع !

الكردينال : ليست أطول فى الوقت الحاضر من ذراع ملك فرنسا ، الذى له المصلحة الحاضرة فى حماية بيكيت ... يجب أن تكون سياستنا هى القياس المستمر لطول هاتين الذراعين ... وفضلا عن ذلك فاننا نستطيع أن نغطى أنفسنا ... سنبعث برسائل سرية إلى بلاط انجلترا نقول فيها إن هذا التعيين الجديد شكلى بحت ، واننا نلغى قرارات الحرمان التى أصدرها بيكيت ، ومن جهة أخرى ننبه بيكيت إلى وجود هذه الرسائل السرية ، طالبين منه أن يكتم السر ، وراجين إياه أن يعتبرها لاغية وكأن لم تكن !

البابا : (مبلبل الذهن) إذن لعله لا داعى إلى جعلها سرية ؟ !

الكردينال : بل الداعى موجود ، لأن هذا سيسمح لنا بأن نناور مع كل منهما كما لو كان الآخر يجهل مضمونها ، بعد أن نكون قد احتطنا فى إطلاعهما عليه ! ... والمهم هو أن لا يعرفا أننا نعرف أنهما يعرفان ! ... هذا شىء يفهمه طفل فى الثانية عشرة !

البابا : لكن سواء كان كبير الأساقفة أو لم يكن ، ماذا نحن فاعلون ببيكيت ؟

الكردينال : (بحركة نشيطة) سنبعث به إلى دير ! دير فرنسى ، ما دام الملك لويس يحميه ... إلى الرهبان السسترسيان فى بوانتيي مثلا ، حيث النظام صارم ، وسيفيده ذلك ، هذا المستأنق القديم ! فليذهب ليتعلم قليلا فى الفقر كيف يعزى الفقراء !

البابا : (يبتسم) النصيحة تبدو لى طيبة يا زامبيللى ! الخبز الجاف والماء والصلوات الليلية علاج ناجع ضد الصدق ! ... (يحلم قليلا ، ويضيف) الشيء الوحيد الذى أسائل نفسى عنه يا زامبيللى هو الفائدة التى يمكن أن تعود عليك من نصيحة طيبة تقدمها لى ...

الكردينال يتظاهر بالحرج .

المنصتان الصغيرتان تذهبان كما جاءتا ، وينفتح الستار كاشفاً ديكور صومعة صغيرة عارية ، منصوبة فى قلب المنظر .

بيكيت يصلى أمام صليب خشبى خشن ، وفى ركن الراهب الصغير جالس القرفصاء يلعب بسكين .

بيكيت : ربما كان الأمر مع ذلك سهلا ، بل لعله أن يكون شديد السهولة ! والقداسة ، أيضاً ، ! إغراء آه ، ما أصعبه ، الحصول على إجاباتك يا ربى ! لقد تأخرت فى الصلاة لك ، لكنى لا أستطيع أن أعتقد أن الذين لهم منذ وقت طويل فضل التوجه إليك

بالسؤال قد عرفوا خيراً مما عرفت خفى مقاصدك ! إن أنا إلا تلميذ مبتدىء ، ستتراكم أخطائى ، كما كان حالى فى ترجماتى اللاتينية الأولى ، عندما كانت قوة مخيلتى تجعل القسيس العجوز ينفجر ضاحكاً . لكنى لا أستطيع أن أعتقد أن فى الوسع أن نتعلم لغتك كما نتعلم لغة إنسانية بالاجتهاد وأن لها معجما ، وقواعد وتراكيب . وأنا على يقين من أن العاصى المتمادى فى عصيانه ، عندما يخر على ركبتيه لأول مرة ويتمتم باسمك ، فأنك تقول له عند ذاك كل شيء ، فى الحال ، وأنه يفهم . أما أنا أمامك فكنت مثل الهاوى . فوجئت بأنى ما أزال أجد فى ذلك متعتى . وبسبب تلك المتعة طالت ريبتى . لم أكن أستطيع أن أعتقد أنها تجعلنى أتقدم خطوة نحوك . لم أكن أستطيع أن أعتقد أن الطريق ممتع . لا أستطيع أن أعتقد أن قلنسواتهم وصومهم وقيامهم الليل يناجونك على البلاط المثلج فى غثيان الحيوان الآدمى المسكين المعذب ، وأن هذا كله شيء آخر غير تحوطات بشر ضعيف ، ويبدو لى الآن أنى لن أتوقف عن مناجاتك فى القوة وفى الترف ، بل وفى الشهوات . أنت أيضاً رب الغنى والرجل السعيد ، يا إلهى ، وهنا تكمن عدالتك العميقة . لم تشح بوجهك عمن أوتى كل شيء عند مولده ، لم تتخل عنه إذ هو فى

شرك اليسر والسهولة ، ولعله هو شاتك الضالة ...
إن الفقراء والذين ساء إعدادهم قد حصلوا على امتيازات زائدة عن الحد عند البداية ... إنهم يفيضون بك ... أنت لهم كضمان كبير جائزته بؤسهم . لكنى أتصور أحياناً أن رءوسهم المتشامخة ستنحنى أكثر مما تنحنى رءوس الأغنياء فى يوم الحساب . لأن نظامك — الذى نخطىء فنسميه عدالة — مكنون وعميق ؛ وأنت بنفس العناية تسبر أغوارهم الناحلة كما تسبر غور الملوك ... تحت هذه الفروق التى تعمينا ، والتى ليست بالنسبة لك موضع ملاحظة ، تحت التاج أو تحت كسرة الخبز ، أنت تكشف نفس الكبرياء ونفس الغرور ونفس الانشغال بالذات انشغالا صغيراً راضياً عن نفسه .

إلهى ، أنا الآن واثق أنك أردت أن تجربنى بهذه القلنسوة ، التى هى موضع كثير من الرضى الأحمق ، وهذه الصومعة العارية ، وهذه العزلة ، وبرد الشتاء هذا الذى يصعب احتماله ، وراحة الصلاة . وإنه ليكون أمراً بالغ السهولة أن تشترى هكذا ، بابخس الأثمان !

سأغادر هذا الدير الذى تحيط بك فيه كل هذه الاحتياطات . سأسترد تاجى وعباءتى المذهبة والصليب الفضى الكبير ، وأعود لأكافح فى مكانى الذى

اخترته لى وبالأسلحة التى رضيت أن تعطيها لى .
لقد رضيت أن تجعلنى كبير الأساقفة وأن تضعنى ، منفرداً ، مثل أصغر قطعة فى الشطرنج ، لا أكاد أزيد عن طولها ، فى وجه الملك ، على رقعة اللعب ...
سأعود إلى ذلك المكان الأول فى تواضع ، تاركاً العالم يتهمنى بالكبرياء ، لكى أعمل هناك ما أعتقد أنه عملى . أما الباقى ، فلتكن إرادتك !

يرسم علامة الصليب .

الراهب الصغير مستمر فى اللعب بسكينه فى ركنه ، وفجأة يقذف به وينظر إليه وهو يتذبذب مرشوقاً فى الأرضية .

بيكيت يلتفت .

ينزل الستار

الفصل الرابع

نفس الديكور . صومعة بيكيت العارية .
هـو واقف ، وأمامه الرئيس وراهبان

الأب : هذا يا ولدى هو مضمون رسائل الملك .

بيكيت : (مغلقاً على نفسه) إنى أفهم انفعالك أيها الأب المبجل .

الأب : إن اختيار ملجئك بيننا قد ملأنا شرفاً ومجداً ، وأستغفر الله وهذه الأوامر كما تعرف تماما توجب على مجمع الرهبان أن يطردك ... لكن ...

بيكيت : (باحترام) لكن ؟

الأب : هو مجرد تحذير جئنا نقدمه لك ، حتى تقدر بمالك من فطنة ما ينبغى عمله .

يحدث صمت . بيكيت ، بنظر الملح ، يسبر غوره . يسأل فى إهمال :

بيكيت : إن الحذر فضيلة ، لكن من الواجب أيضاً يا أبى أن لا يسرف المرء فى الحذر ... ألا يقع ديركم فى أراضى صاحب الجلالة لويس ملك فرنسا الذى منحنى حمايته الملكية ؟

الأب : (بتواضع) إذا كان نظام الاخوان السسترسيان يا ولدى له بيته الأم هنا فى بوانتيى ، إلا أنه دولى ... ولا يسعك أن تكون جاهلا بأن لنا ممتلكات عظيمة فى انجلترا وفى نورمانديا ، فى كونتيه آنجو وفى دوقية أكيتانيا .

بيكيت : (يبتسم) آه ! أيها الأب المبجل ! ما أصعب الدفاع عن شرف الله مع وجود ممتلكات عظيمة ! ... (يقصد صرة ملابس صغيرة معدة فى ركن) ألا ترى نظرات ! هذه هى ممتلكاتى : قميص للغيار ومنشفة للاستحمام ... صرتى كانت معدة ... كنت أنوى أن أرحل اليوم ، من نفسى .

الأب : (مسترداً بشاشته) إنه لارتياح كبير لشرفنا أن تكون أنت من اتخذ هذا القرار الأليم يا ولدى ، حتى قبل زيارتنا .

بيكيت : (بشموخ) لا تنادنى ولدك أيها الأب ، فلقد تعطف قداسة الحبر الأعظم فأعاد إلى مقاليد منصب كبير أساقفة كنيسة انجلترا — وقد فاتنى أن أقول لكم ذلك — وهو المنصب الذى كنت بارادتى قد تنازلت عنه بين يديه ... وهكذا ، وقبل هذه الرحلة غير المؤكدة ، سأكون أنا من يمنحكم بركته الرسولية ! (يقدم إليه الخاتم الكنسى الذى كان قد أعاده إلى صبعه ، فيركع الأب باحدى ركبتيه على الأرض

متجهما ويقبله . ثم يخرج مع إكليروسه . بيكيت لم يتحرك . ثم يتناول صرته ويقول للراهب الصغير) تعال أيها الصغير ! ولا تنس سكينك ، فلعنا نحتاج إليه فى الطريق ! (١)

يخرجان من جانب آخر .

«بارافان» الصومعة يرتفع إلى سقف المسرح ، كاشفاً عرش ملك فرنسا فى وسط القاعة .

الملك لويس يدخل ، ممسكاً بيكيت من ذراعه فى ألفة .

الملك لويس : ألم أقل لك يا بيكيت إن مطبخ السياسة شىء خسيس ؟.. إن المرء فيه ليجر معه روائح عطنة ... لقد عاد التفاهم بين مملكة انجلترا وبيننا ، والسلام من تلك الجهة يضمن لى مزايا عظيمة فى القتال الذى سأخوضه ضد الامبراطور ... لابد أن تكون خطوطى الخلفية آمنة ، بهدنة مع هنرى دى بلانتاجيه ، قبل أن أبدأ سيرى نحو الشرق ... وبالطبع كان لك مكانك المرموق فى كشف حساب الملك ، بل إنه لينبغى على أن أعترف لك بأن كل ما يطلبه منى فيما عداك لا قيمة له (يحلم قليلا) يا للرجل الغريب ! ... كان ينبغى أن تكون سياسة انجلترا هى إقفال الفك الآخر من الكماشة ، إنتهازاً لفرصة عدوان الامبراطور ... لكنه يضحى

(١) ألغى هذا المشهد عند عرض المسرحية فى باريس .

بهذه الفرصة ، عن قصد ، فى مقابل التلذذ بطردك ... أهو يكرهك إلى هذا الحد ؟

بيكيت : (ببساطة) كنا نحب أحدنا الآخر يا مولاى ، وأعتقد أنه لا يغفر لى أنى فضلت عليه الله .

الملك لويس : إن ملكك لا يؤدى عمله على وجه حسن يا كبير الأساقفة ... إنه يخضع لنزوة ... اختار أن يسجل هدفاً ضدك بدلا من أن يسجله ضدى ... أنت فى مفكرته ، ويجب على أن أدفع الثمن وأنفيك ... وأنا لا أفعل ذلك بدون شعور بالخزى ... إلى أين تنوى أن تذهب ؟

بيكيت : أنا راع ظل طويلا بعيداً عن قطيعه ، وأنوى أن أعود إلى انجلترا ... وهذا قرار اتخذته قبل مقابلة جلالتكم .

الملك لويس : (مندهشاً) هل عندك مزاج للاستشهاد ؟ خيبت ظنى ، فلقد كنت بدوت لى رجلا أكثر حصافة !

بيكيت : هل يكون من الحصافة أن أذهب فأتسول فى طرقات أوربا مكاناً ينازعنى عليه الخوف ويكون فيه هيكلى الفانى فى مأمن ؟ وفضلا عن ذلك فأين يمكن أن يكون هيكلى الفانى فى مأمن ؟ ... أنا كبير أساقفة انجلترا ... إنها بطاقة صارخة بعض الشىء على ظهرى ... يريد شرف الله والعقل — إذ يتوافقان فى هذه المرة — أنه بدلا من المخاطرة بطعنة سكين فى الطريق من رجل

غامض اليد ، أن أذهب لأقتل – إذا كان لا بد لى أن أقتل – وأنا مرتد قلنسوتى وعباءتى الذهبية وفى يدى صليبى الفضى ، وسط رعيتى ، وفى كنيستى العليا ... هذا المكان وحده يناسبنى ...

الملك لويس : (بعد وقت) الحق معك بلا ريب (يتنهد) آه ! لكم هو خسارة أحياناً أن يكون المرء ملكاً ، عندما يفاجئه لقاء رجل ... ستقول لى – من حسن الحظ – إن الرجال نادرون ... لماذا لم تولد على هذا الجانب من المانش يا بيكيت ؟ (يبتسم) صحيح أنك فى هذه الحالة كنت بلا ريب ستسبب المتاعب لى أنا ! ... إن شرف الله يضايق ... (يعود فيحلم قليلا أيضاً ، ثم يقول فجأة) وعلى كلٍ وليكن ما يكون انت تعجبنى .. وأنا أمنح نفسى لحظة إنسانية عندما أحاول شيئاً قد يستفيد منه مولاك لتضخيم كشف حسابه ... إن طردك ما كان ليكلفنى إلا قليلا من الشرف ... وبعد أيام قليلة ألتقى بهنرى فى فرتيه برنار لتوقيع اتفاقياتنا ، وسأحاول إقناعه بعقد الصلح معك ... أتقبل ، على وجه الاحتمال ، أن تكلمه ؟

بيكيت : إننى يا مولاى منذ توقفنا عن رؤية أحدنا الآخر لم أنقطع عن الكلام معه !

إظلام . رنات أبواق متطاولة . وقد رفع الديكور بتمامه ، ولم يبق إلا المنظر المحيط بالهضبة العارية ،

وهى سهل واسع قاحل تضربه الرياح . أبواق أخرى. نبلاء ومحاربون ، كلهم على الخيل ، مجتمعون على أحد جانبى المنظر فى كتل ذات ألوان صارخة تعلوها الرماح والرايات ، وكلهم ملتفتون نحو العارضة الخلفية الديكور ، كما لو كانوا ينظرون إلى شىء .

الملك لويس : (لباروناته) إن هذا لم يتم بدون عناء ، أما بيكرت فكان يقبل كل شىء وهو باسم ، بل إنه استجاب للكثير من تعنت الملك كما لو كان يخضع لطلبات طفل غاضب ، لكن الملك لم يكن يريد أن يسمع شيئاً ، وكان يزمجر كالنمر ويده على خنجره .

البارون الأول : إنه يكرهه كرهاً شديداً

الملك لويس : (برفق) أيها السادة ، إما أننا لا نفهم شيئاً فى علم النفس أو يكون الملك ، من بين الرجلين ، هو الذى يحب بمعنى الحب ... إن بيكيت يشمل الملك بحنان مفعم بالحماية ، لكنه لا يحب فى الدنيا إلا الفكرة التى صاغها لنفسه عن شرفه .

البارون الثانى : هاهما يتقدمان أحدهما نحو الآخر ...

الملك لويس : وحدهما ، وسط السهل العارى ، مثل ملكين .

البارون الأول : (غاضباً فجأة) مولاى ! إنى أفهم ملك انجلترا ! إن من الوقاحة أن يطلب أحد الرعايا مثل هذا التكريم !

الملك لويس : (برفق) لا دخان بغير نار يا بارون . إذا كان قد جرؤ على التشدد فى طلب هذا التكريم ، وإذا كان ملكان

قد وجدا أن من الطبيعي أن يقدماه له ، فلا بد أنهما أحسا أن هذا الرجل ، بعناده الهادىء ، يمثل ملكاً آخر ... فليتبادلا قبلة السلام ، طبقاً للعادة المصونة المرعية ! ومن المحتمل أن لا يكون ذلك أحكم سياسة بالنسبة لنا ، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا ، من الناحية الانسانية ، من أن نتمنى وقوعه . (١)

حارس فى مقدمة المسرح ، لآخر أصغر منه :

الحارس : افتح عينيك أيها الرأس الصغير واملأهما مما ترى ، أنت جديد فى المهنة ، لكنك لن ترى كل يوم ما تراه الآن ، فهذا لقاء تاريخى !

الأصغر : هذا لا يمنع أن البرد قارس ! هل سيجعلوننا ننتظر طويلا ؟

الحارس : نحن فى حماية حافة الغابة ، أما هما هناك فى قلب السهل ، فقل لنفسك إنهما يشعران بالبرد أكثر منا .

الأصغر : إن رئيس الأساقفة خيال بارع بالنسبة لقسيس ، لكن فرسه لن تلبث أن تلقى به إلى الأرض ، فهى سيئة الطبع ! انظر !

الحارس : لا تخف عليه ، فان الفتى قبل أن يكون قسيساً كان يكسب كل مباريات الفروسية !

الأصغر : (بعد فترة انتظار) ها هما الآن وجهاً لوجه ... ماذا تعتقد أنهما يقولان أحدهما للآخر ؟

(١) ألغى هذا المشهد عند عرض المسرحية فى باريس .

الحارس : لعلك تتصور يا مغفل أنهما يتساءلان عن أخبار عائلتيهما ؟ أو أنهما يتشاكيان من تورم جسميهما من البرد ؟ إن مصير العالم هو ما يناقشانه فى هذه اللحظة أشياء لن يسعنا أنت وأنا أن نفهم منها شيئاً بالمرة ... بل ولن تفهم حتى الكلمات التى يستخدمها ، هذان العظيمان !

إظلام ، ثم يعود النور ، فاذا الجميع قد اختفوا ، لم يعد موجوداً فى قلب السهل غير بيكيت والملك على جواديهما ، وجهاً لوجه . وسنظل نسمع طوال المشهد ريح الشتاء ، كأنها بطانة نغمية حادة تبطن كلماتهما . ولن نسمع خلال سكتاتهما غير ذلك الصوت .

الملك : لقد ظهر عليك السن يا توماس !

بيكيت : وأنت أيضاً يا صاحب السمو . ألا يرهقك البرد ؟

الملك : أجل . إن البرد يسلخنى . لابد أنك راض ، أنت ! أنت فى بيئتك المحببة . وفوق هذا قدماك حافيتان !

بيكيت : (يبتسم) هذه غندرتى الجديدة !

الملك : أما أنا فقد هرئت قدماى بالرغم من حذائى المبطنين بالفرو . هل حدث لك هذا ؟

بيكيت : (برفق) أجل ، بكل تأكيد .

الملك : (متهكماً) وأنت على الأقل تقدم أورامك زلفى إلى الله ، أيها الراهب المقدس ؟

بيكيت : (جاداً) عندى ما هو أحسن من هذا لتقديمه إلى الله .

الملك : (يصرخ فجأة) إذا بدأنا فى الحال فسوف نتشاجر ! لنتكلم عن أشياء تافهة ... أتعرف أن ابنى بلغ عامه الرابع عشر ؟ قد بلغ رشده !

بيكيت : هل انصلح حاله ؟

الملك : غبى صغير ، وخبيث كأمه . لا تتزوج أبداً يا بيكيت !

بيكيت : (يبتسم) هذه قضية محلولة الآن ، وسموك صاحب الفضل فى ذلك ، فأنت الذى رسمنى قسيساً !

الملك : (يعاود الصراخ) قلت لك لا تبدأ الجدل فوراً ! لنتكلم عن شئ ءآخر ...

بيكيت : (يسأل ، خفيفاً) هل شغل سموكم بالصيد كثيراً ؟

الملك : (بغضب) كل يوم ! إن هذا لم يعد يلذ لى .

بيكيت : هل عند سموكم صقور جديدة ؟

الملك : (بغضب) أغلى الأنواع ! لكنها لا تحسن الطيران .

بيكيت : والخيل ؟

الملك : أرسل إلى السلطان أربعة من أصائل الخيل الرائعة ، بمناسبة العيد العاشر لحكمى ، لكنها تلقى بمن يركبها إلى الأرض ، ولم يستطع أحد حتى الآن أن يمتطيها .

بيكيت : (يبتسم) يجب أن آتيك يوماً ما لأراها بنفسى !

الملك : ستطرحك أرضاً كما فعلت مع الآخرين ! وسنرى مؤخرتك من تحت ردائك ! هذا على الأقل هو ما أرجوه ، وإلا اعترانى اليأس من كل شىء !

بيكيت : (بعد سكتة قصيرة) أتعرف أكثر ما آسى عليه

يا صاحب السمو ؟ إنها الخيل .

الملك : والنساء ؟

بيكيت : (ببساطة) نسيت .

الملك : لئيم ! لقد صرت لئيماً حين صرت قسيساً ! (يسأل فجأة) هل كنت تحبها ، جويندولين ؟

بيكيت : نسيت أيضاً .

الملك : كنت تحبها ! هذا هو التفسير الوحيد الذى توصلت إليه .

بيكيت : (جاداً) كلا يا أميرى ، بقلبى وبضميرى لم أكن أحبها .

الملك : إذن فأنت ما أحببت شيئاً قط ، وهذا أسوأ ! (يشاكس فى السؤال) لماذا تدعونى أميرك ، كما كنت تفعل فى الماضى ؟

بيكيت : (برفق) لأنك لا زلت أميرى .

الملك : (يصيح) إذن لماذا تسىء إلى ؟

بيكيت : (بدوره ، برفق) لنتكلم عن شىء آخر .

الملك : عن ماذا ؟ أنا بردان .

بيكيت : لقد قلت لك دائماً يا أميرى أنه ينبغى مغالبة البرد بأسلحة البرد ... اخلع عنك ملابسك كل صباح واستحم بالماء البارد .

الملك : فعلت ذلك فيما مضى ، عندما كنت أنت موجوداً لترغمنى عليه ، أما الآن فلم أعد استحم ... وأصبحت

رائحتى نتنة ! ... ولقد تركت لحيتى تنمو زمناً ... هل عرفت هذا ؟

بيكيت : (يبتسم) نعم . وضحكت كثيراً .

الملك : لكنى حلقتها بعد ذلك ، لأنها كانت تهرشنى (يصيح فجأة ، مثل طفل ضال) أنا أشعر بالملل يا بيكيت !

بيكيت : (جاداً) لكم أتمنى لو كان فى وسعى يا أميرى أن أساعدك .

الملك : ماذا تنتظر ؟ أنت ترى أنى أموت من الملل !

بيكيت : (برفق) أن يصبح شرف الله وشرف الملك . شيئاً واحداً

الملك : هذا ما قد يلزمه زمن !

بيكيت : أجل . يلزمه زمن !

يقع صمت ، ولا نعود نسمع غير الرياح .

الملك : (فجأة) إذا كنا لم يعد لدينا ما نقوله فيحسن بنا أن نذهب لنتدفأ !

بيكيت : لدينا كل شيء لنقوله أحدنا للآخر يا أميرى ، ولعل الفرصة لن تسنح مرتين .

الملك : عجل إذن ، قبل أن نتحول إلى تمثالين من الثلج يتصالحان فى برد أبدى ! ... أنا ملكك يا بيكيت ! وطالما بقينا على هذه الأرض ، فان لى عليك دائماً أن تقوم بالخطوة الأولى ... أنا على استعداد لنسيان أشياء كثيرة ، لكن ليس من بينها أنى الملك ... أنت الذى علمتنى هذا .

بيكيت : (جاداً) ولا تنسه أبداً يا أميرى ، حتى لو كان ذلك ضد الله ! عليك أنت عمل آخر ، هو أن تمسك دفة السفينة .

الملك : وأنت ، ماذا عليك أن تفعل ؟

بيكيت : على أن أقاومك بكل قواى ، عندما توجه دفتك ضد الريح

الملك : الريح المواتية يا بيكيت ؟ سيكون هذا جميلا للغاية ! إن الملاحة الميسرة للبنات الصغيرات !... الله مع الملك ؟ هذا لا يحدث أبداً ... مرة فى كل قرن، فى وقت الحروب الصليبية ، عندما تصبح المسيحية كلها : « هذه إرادة الله ! » ... وأنت تعرف كما أعرف أى أغراض حقيقية — مرة من كل مرتين — تختفى وراء الحروب الصليبية ! أما بقية الزمن ، فهى الريح المناوئة ... ومن الواجب فعلا ان يكون هناك من يتكفل بالبحارة !

بيكيت : ومن يتكفل بالريح غير المعقولة — وبالله لقد تم تقسيم المهام بصفة نهائية ومن سوء الحظ أنها قسمت فيما بيننا نحن الاثنين يا أميرى ، ونحن كنا صديقين.

الملك : (يصيح بامتعاض) إن ملك فرنسا — ولا أدرى بعد ماذا سيكسب من ذلك — ظل خلال ثلاثة أيام يحضنى على أن نتصالح ، فماذا تفيد من دفعى إلى نهاية صبرى ؟

بيكيت : لا شى .

الملك : أنت تعرف أنى الملك وأن على أن أتصرف كملك ... ماذا ترجو ؟ ضعفى ؟

بيكيت : كلا ماكان ضعفك إلا ليرعبنى .

الملك : أن تغلبنى بالقوة ؟

بيكيت : إنك أنت القوة .

الملك : أن تقنعنى ؟

بيكيت : ولا هذا . ليس من شأنى أن أقنعك . من شأنى أن أقول لك لا .

الملك : ينبغى مع هذا أن تكون منطقياً يا بيكيت !

بيكيت : كلا . هذا ليس ضروريا يا ملكى . الواجب الوحيد هو القيام بالمهمة ، بلا منطق ، وإلى النهاية الأخيرة .

الملك : لكنى مع ذلك عرفتك جيداً ! عشر سنوات أيها السكسونى الصغير !... فى الصيد وفى بيت الدعارة وفى الحرب ... ليالى بطولها ونحن الاثنان وراء قنانى النبيذ ، وفى فراش نفس البنت أحياناً ، وحتى فى المجلس فى ساعة الشغل ... بلا منطق ؟ هاك كلمة لا تشبهك !

بيكيت : ربما . أنا لم أعد أشبه نفسى .

الملك : (متهكما) هل مستك الرحمة الإلهية ؟

بيكيت : (جادا) ليست الرحمة التى تعتقدها فانى بها غير جدير .

الملك : هل أحسست أنك تعود سكسونياً ، بالرغم من مشاعر بابا الطيبة المتعاونة ؟

بيكيت : حتى ولا هذا .

الملك : وإذا إذن ؟

بيكيت : أحسست ببساطة أنى مكلف بشىء ، لأول مرة ، فى تلك الكتدرائية الخالية ، فى مكان ما من فرنسا ، التى أمرتنى فيها أن أحمل هذا العبء ... كنت رجلا بلا شرف ، وفجأة صار لى شرف ، ذلك الشرف الذى ما تصورت قط أن يكون لى ، شرف الله ... شرف لا يدرك ، شرف هش ، كأنه ملك طفل مطارد !

الملك : (الذى تزداد شراسته) ماذا لو تكلمنا يا بيكيت عن أشياء محددة وبكلمات فى متناول فهمى ؟ إننا مالم نفعل ذلك لن ننتهى ، وأنا بردان ، والآخرون ينتظروننا عند كل طرف من هذا السهل .

بيكيت : أنا دقيق وواضح .

الملك : إذن فهو أنا المغفل ... كلمنى كما تكلم مغفلا !... هذا أمر ! ... هل ستلغى قرارات الحرمان الخاصة بجيوم داينسور والآخرين والتى أصدرتها على رجالى ؟

بيكيت : لا يا مليكى ، فليس عندى غير هذا السلاح للدفاع عن ذلك الطفل الذى عهد به إلى ، والذى هو عريان .

الملك : هل تقبل الاثنى عشر مقترحاً التى أقرها أساقفى فى نورشامبتون فى غيابك ، وعلى الأخص أن تعدل عن حمايتك عن القانونية لرجال الاكليروس السكسون ، الذين يحلقون قمة الرأس للفرار من خدمة الأرض الإلزامية ؟

بيكيت : لا يا ملكى ، فان دورى هو الدفاع عن نعاجى ، وهؤلاء هم نعاجى (بعد فترة ، يقول أخيراً) ولن أقبل كذلك أن ينتزع من الأسقفيق حق اختيار القسس للابراشيات ، ولا أن يحاكم أى رجل من رجال الدين بشريعة غير شريعة الكنيسة . هذه هى واجباتى بوصفى راعياً ، ولا تلك التنازل عنها . لكنى سأقبل البنود التسعة الأخرى ، بروح المسالمة ، ولأنى أعرف أن ينبغى أن تظلل أنت الملك — فيما عدا شرف الله .

الملك : (بعد فترة . ببرود) حسناً . ليكن سأساعدك على الدفاع عن إلهك ، مادامت هذه هى نزعتك الجديدة ، إكراما لذكرى الرفيق الذى كنته بالنسبة لى — فيما عدا شرف المملكة !... تستطيع ياتوماس أن تعود إلى انجلترا .

بيكيت : لك الشكر يا أميرى ... لكنت أنوى أن أعود اليها بأى شكل وأسلم نفسى لسلطتك ، لأنك على هذه الأرض ملكى ، وينبغى على حيث حللت من تلك الأرض أن أدين لك بالطاعة .

الملك : (محرجاً . بعد فترة) حسناً . لنعد الآن . قد انتهينا . وأنا بردان .

بيكيت : (بصوت مكتوم ، هو أيضاً) أنا أيضاً الآن بردان !

صمت آخر .

يتبادلان النظر .

نسمع الرنمسع .

الملك : (يسأل فجأة) لم تكن تحبنى ، أليس كذلك يابيكيت؟

بيكيت : بلى كنت أحبك يا أميرى بقدر ماكنت قادراً على أن الحب .

الملك : هل أخذت تحب الله ؟(ويصيح) فأنت إذن أمها الرأس القذر لم تتغير ، وما تزال لا تجيب عندما يلقى عليك سؤال ؟

بيكيت : (برفق) قد أخذت أحب شرف الله .

الملك : (معتماً) عد إلى انجلترا ، انى أعطيك الأمان الملكى. وأتمنى لك أن تحظى أيضاً بسلام نفسك الذاتى ، وأن لا تكون قد أخطأت فى فهم نفسك ... ولن أتوسل إليك بعد الآن أبداً (يصرخ ، فجأة) ماكان ينبغى أن أعاود رؤيتك ! إن هذا قد آذانى !

تنفضه فجأة شهقة بكاء تحطمه فوق حصانه .

بيكيت : (متأثراً ، يهمهم وهو يقترب) ياأميرى !

الملك : (يجأر) آه الا الا شفقة ! إنها قذرة ! إلى الوراء ! عد إلى انجلترا ! عد إلى انجلترا ! أننا نشعر هنا ببرد شديد للغاية !

بيكيت : (جاداً ، يدير حصانه ويقترب من الملك) وداعاً يا أميرى . هل تمنحنى قبلة السلام ؟

الملك : كلا ماعدت أستطيع الاقتراب منك . لم أعد أقوى على رؤيتك. فيما بعد! فيما بعد! عندمايزول عنى الألم !

بيكيت : سأبحر غداً . وداعاً يا أميرى . إنى أعرف أنى لن أراك بعد .

الملك : (صارخاً فيه ، بسحنة منقلبة ، حاقدة) كيف تجسر على أن تقول لى هذا بعد كلمتى الملكية؟ أتحسبنى خائناً ؟ (بيكيت يطيل اليه النظر لحظة فى هيئة جادة ، وبنوع من الاشفاق فى النظرة ، ثم يستدير بحصانه فى حركة بطيئة ويبتعد . الريح تشتد . الملك يصيح فجأة) : توماس !

لكن بيكيت لم يسمع ، ويبتعد .

ولا يكرر الملك صيحته ، بل يلهب جواده الذى ينطلق راكضاً فى الاتجاه المضاد .

النور يتخفض ثم يعود ، مع عصف الرياح الذى يتزايد. إنه الجزء الآخر من السهل حول ملك فرنسا .

الملك لويس : لقد انتهينا ، وهما يفترقان .

البارون الأول : إنهما لم يتبادلا قبلة السلام .

الملك لويس : كلا . وقد رأيت هذا . وأخشى أن تكون وساطتنا الملكية قد ذهبت هباء . من غير الممكن أن يتصالح الماء والنار . هاهوذا ! (بيكيت يصل ويوقف جواده

بالقرب من الملك . يتنحى الآخرون) حسناً يا بيكيت ؟

بيكيت : (مبهماً) لك الشكر يامولاى ، فلقد نلت سلامى.

الملك لويس : عن أى سلام تريد أن تتكلم ؟ سلام روحك أو سلام الملك ؟ إذا كان الثانى ما عنيت ، فانه من بعيد لم يكن يبدو حاراً !

بيكيت : قصدت سلام الملك يا مولاى . أما عن الآخر ، وإنه لغير مؤكد هو أيضاً ، فانه يتوقف على ملك آخر .

الملك لويس : إن هنرى لم يعطك قبلة السلام، أليس كذلك ؟

بيكيت : كلا .

الملك لويس : إنى لا أود ، ولو بوزنى ذهباً ، أن أكون قد نصحتك بالعودة بيكيت إنك سأكون بسبيلك فى موقف حرج ، لكن لا لا بأس ! إبق هنا ... لا تأمن لملكك ، طالما لم يمنحك قبلة السلام .

بيكيت : إنى أبحر غداً يا مولاى . إنهم ينتظروننى هناك .

الملك لويس : من ينتظرك ؟ (بيكيت يبتسم ابتسامة حزينة ، بحركة غامضة ، ولا يجيب . أبوا ق بعيدة) هذه قوات الملك تبتعد . لقد تمت المقابلة . لنعد إلى فرتيه برنار ، أيها السادة (١) ؛

(١) الغى هذا المشهد عند عرض المسرحية فى باريس وكذلك المشهدان التاليان لل برارى ساندوتش ونقلت بعض اجابات بيكيت والراهب الصغير الى مشهدهما الذى يسبق القتل ، وهى موجودة لاى عرض محتمل ما فى مفكرة بآخر الكتاب .

يخرجون جميعاً . أبواق قريبة . وأمام المنظر الذى يظلم ، يظهر على المسرح زورق ، والدنيا ليل ، وفى الزورق بيكيت والراهب الصغير وملاح .

رعد وعاصفة . الزورق يترنح مع موجة عالية فيصطدمون الواحد بالآخر ، وينفجر بيكيت ضاحكاً ويصيح بالراهب الصغير الذى ينزح الماء .

بيكيت : انزح أيها الصغير ، انزح ! إن مايلزم هو أن تفرغ من الماء قدرما نتلقى منه ، هذا هو كل شىء !

الملاح : (يصيح ببيكيت) تجلد ياأبى ! إن بحر المانش شديد الهياج فى هذه الفترة ، لكنى رأيت من هذا الكثير ! .. والله — الذى لا يغرقنى عندما يمتلىء زورقى بالسمك — لن يشاء بكل تأكيد أن يغرقنى فى اليوم الذى أنقل فيه رجلا مقدساً !

بيكيت : (يصيح به هو الآخر ، ضاحكاً ، كما لو كانت العاصفة تهدئه) لا كل من لبس العمامة يزينها ! صل يا ولدى ! لا يكون المرء أبداً على ثقة من أن الذى ينقله هو رجل مقدس !

الملاح : (يصيح به) الأولى أن تصلى أنت يا أبى ! أما أنا مشغول بهذه الدفة اللعينة ! هذا يكفينى !

بيكيت : (ضاحكاً فى الريح) الحق معك . كل واحد له عمل !

موجة أعلى . يطقطق الشراع . يبدو كأن الزورق يغرق . الملاح يقوم اتجاه الزورق ، ويصيح .

الملاح : أحسنت يا أبى ! أرى أنك تعرف كيف تصلى ، أنت ! فى هذه المرة ، كان فى الإمكان أن نهلك !

بيكيت : (يغمغم مبتسما ، والماء يقطر من وجهه) يا عاصفة الله الطيبة ! إن عواصف البشر خسيسة ، وتترك فى الفم طعماً كريهاً ، سواء خرج المرء منها غالباً أو مغلوباً .. إن الصراع لا يطيب للإنسان إلا ضد الحيوانات المفترسة وضد الماء والنار والريح يصيح بالراهب الصغير ، مشيراً إلى العجوز الذى يصارع وهو متشبث بالدفة (انظر إليه عند دفته) ، هذا العجوز المنحوت كأنه كستنة قديمة ، بمضغة التبغ التى لن يبصقها أبداً ، حتى لكى يشرب حساءه ... انظر إلى الرجل مطمئنا وسط الجحيم ، فوق قشرة الجوزة هذه ... إنه قادر على كل شىء ... آه ! إنى أحب الرجال ! الجنس الخشن !

موجة جديدة .

والملاح يقوم الاتجاه صائحاً :

الملاح : صل بشدة يا أبى !... بضع صلوات أخرى ونكون قد اجتزنا الأسوأ ! صل بشدة !

بيكيت : (يصيح به مرحاً ، فى الريح) اعتمد على ! وتجلد أنت أيضاً يا صاحبى !... إن الله يتسلى ... إنه يعرف جيداً أن هذه ليست الطريقة التى ينبغى أن أموت بها !

الزورق يغوص مرة أخرى فى موجة عالية كالبيت ،

ويختفى . الرعد والبرق فى الليل ، على البحر الثائر ،
فى ليل كثيف.
ثم ضوء غير مؤكد ، على ساحل صحراوى ، ومازلنا نسمع هدير البحر من بعيد ، لكن بشعور من الهدوء. بيكيت والراهب الصغير واقفان أحدهما بالقرب من الآخر ، على الساحل الرملى العارى فجر مبهم وأشهب .

بيكيت : أين نحن ؟

الراهب الصغير : لكأنه الشاطىء غير بعيد من ساندوتش .

بيكيت : أرجو أن يكون كلامك صحيحاً . أنا أعرف هذا البلد . وسيكون فى وسعنا أن نبلغ كنتربرى من طرق مستقيمة .

الراهب الصغير : إن الرجل الذى جرى نحونا على الساحل فى لحظة إبحارنا من فرنسا قد قال إنهم ينتظروننا فى مكان ما على هذا الشاطىء .

بيكيت : لقد بعث الله إليهم بعاصفة طيبة لكى يضللهم . لابد أنهم اعتقدوا أننا لم نقو على عبور البحر ، وأنهم عادوا إلى بيوتهم لكى يناموا ... إن القتلة أنفسهم ينامون .

الراهب الصغير : (يسأل ، سؤالا بسيطا) هل يجب أن نموت ؟

بيكيت : بغير شك ياولدى . لكن أين ومتى ؟ . الله وحده هو صاحب القرار . وآمل أن نصل إلى كنيستى . أعتقد أننى سألقى الموت هناك . هل أنت خائف ؟

الراهب الصغير : (ببساطة) أوه ، لا ، إذا أتيحت لنا فرصة القتال... كل ما أريده ، قبل الموت ، هو أن أضرب بضع ضربات ، حتى لا يكون كل ما أفعله هو أن أتلقى الضربات ... لوأنى قتلت قبل موتى نورمانديا واحداً فحسب — واحداً ، فأنا لا أطلب الكثير — واحداً بواحد ، فإن هذا سيبدو لى على كل حال أمراً عادلا ... هلا ذهبنا إلى هناك ياأبى ؟ سنريهم نحن الاثنان أنهم لا يخيفوننا بالزرد وبالحراب الكبيرة، أولئك الذين ينتظروننا على هذا الساحل ؟ .

بيكيت : (آخذاً بيده) فلنذهب إلى هناك !

الراهب الصغير : إنه لأمر طيب أن يموت المرء من أجل شىء ما ... أن يقول لنفسه إنه مجرد حبة رمل صغيرة ، ولا شىء غير هذا ، لكن الاستمرار فى وضع حبات الرمل فى الآلة سينتهى بها يوماً إلى أن يسمع صريرها ، وتتوقف عن الحركة

بيكيت : (برفق) ويومذاك ؟

الراهب الصغير : يومذاك نضع آلة جديدة ، جميلة وحسنة التزييت، فى مكان الآلة القديمة ، وسيكون النورمانديون فى هذه المرة هم الذين نحشرهم بداخلها ! (يسأل بإخلاص) أليست هذه هى العدالة ؟

بيكيت : أجل ، هكذا تكون العدالة . فلنصل معاً قبل الرحيل . إننا فى حاجة شديدة إلى ذلك (يضم يديه وهو واقف

إلى جانب الراهب الصغير الذى يصلى مطأطىء الرأس . يغمغم) إلهى ! أنت يا من تعرف ما نحن ذاهبان للبحث عنه ، فى موعدك – وأخشى أنلايكون ذلكمن جانبنا كلينا شيئاً نقياً – هل ستحمينا ؟ هل ستحفظنا حتى النهاية ؟ حتى أقدام محرابك ، حيث قدر للمصير أن يكون ؟ (يرسم علامة الصليب ويلتفت نحو الراهب الصغير) فلنذهب الآن . يجب أن نستفيد مما بقى من الليل فى مسيرتنا ... ماذا تفعل ؟

الراهب الصغير : (جالساً القرفصاء) أحاول أن أرقع ما بقى من خفى ... إنه توافق حسن ، إذا مت غداً ، إذ أنه لم يكد يبقى منه شىء فى قدمى !

ينهمك فى مهمته ، بين الجد والضحك ، مستخدماً سكينه ، وبيكيت يغمغم وهو يتأمله :

بيكيت : يا إلهى ! إن حب الناس أيضاً كان فى الإمكان أن يكون حلا !

الراهب الصغير : (ينهض) تمت المهمة ، وسيتحمل برهة من الزمن .

بيكيت : (آخذاً بيده) حسناً ... فلنبدأ بالقدم اليسرى ... وما رأيك فى أن نصفر نغما مرحاً ، نحن الاثنان ، لتدفئة أنفسنا ؟ أم تراك تعتقد أن ذلك يكون خطيئة ، إذا أخذنا فى الاعتبار المكان الذى نقصده ؟... مهما يكن من شىء ، فإن الله يرسل محنه ، لكنه ما قال قط ، فى أى مكان ، أننا نستطيع أن نتقبلها ونحن نصفر ؟

يبتعدان معاً على الساحل الرملى ، ويمسك كل منهما بيد الآخر ، وهما يصفران النشيد المحبب لبيكيت.

يتغير النور ، وتسقط ستائر حمراء ، والخدم يحضرون المنضدة والكراسى التى بلا ظهور كرسى الملك العالى . هنرى وابنه الأكبر والملكتان والبارونات يتخذون مجالسهم حول المنضدة . المشاعل تنشر نوراً فجاً ، وظلالا متحركة . وفى أثناء تغيير الديكور نسمع فى الكواليس صفير النشيد الباسل .

الكل ينتظرون ، واقفين حول المنضدة ، والملك يتأملهم جميعاً بنظرة تومض بالسخرية الشريرة ، ثم يصيح :

الملك : أيها السادة ، لن أكون أول الجالسين اليوم ! (لابنه ، الذى يقدم إليه تحية كوميدية) أنت ملك ، أيها السيد ! لك مقام الشرف ، فخذ مكانك فى الكرسى العالى ، وسأكون أنا اليوم فى خدمتك .

الملكة الأم : (متضايقة قليلا) ياولدى !

الملك : أنا أعرف ما أفعل يامدام .(يصيح فجأة) تحرك يا مغفل ! أنت ملك ، لكنك ما تزال كما كنت دائماً ، أبله ! (الولد ، الذى بدأ حركة من يتفادى صفعة ، عندما صاح والده ، يذهب للجلوس فى مكان هنرى ، خبيثاً ومضطرباً بعض الشىء) خذوا أماكنكم أيها السادة ، وسأظل أنا واقفاً ...

يا بارونات انجلترا ، هاكم ملككم الثانى !... لقد صار لازماً لنا ، والخير أقاليمنا الواسعة ، وجود زميل فى الملكية . وقد اقتضت مشيئتنا ، تجديداً لعرف قديم ، أن نرسم خليفتنا فى حياتنا — نتقاسم معه مسئولياتنا . ونحن نسألكم اليوم أن تقدموا إليه احترامكم وأن تكرموه إكرامكم لنا .

يشير ، اثنان من صغار النبلاء ، مفرطان فى التوقر ، أحضرا قطعة من لحم حيوان الصيد على صينية كبيرة من الفضة . ويخدم الملك ابنه .

الملكة : (لابنها) استقم فى جلستك ، وحاول على الأقل أن تأكل بطريقة مهذبة ، اليوم إذا أنت فى مكان الشرف .

الملك : (يغمغم ، وهو يخدمه) لا جاذبية فى منظره ... إنه لئيم صغير ضيق العقل ، لكنه سيغدو يوماً ما ملككم شئتم أم أبيتم ، ومن الخير لكل أن تتعودوا عليه من الآن ! وهو فضلا عن ذلك كل ماكان على أن أقدمه لكم ...

الملكة الأم : (تنفجر فجأة ، ساخطة) حسبك ياولدى ! هذه اللعبة غير جديرة بك أوبنا ... لقد أردت ذلك ، ضد رأيى ، فالعب لعبتك على الأقل بكرامة .

الملك : (يلتفت ، غاضباً) أنا ألعب اللعب التى تسلينى يا مدام ، وبالطريقة التى تسلينى !... أيها السادة ، إن قناع الكرنفال هذا لا قيمة له على الاطلاق ،

فإذا تحرك ملككم الجديد فأتونى وقولوا لى ، وسأتكفل به بركلة فى مؤخرته ، لكنه ستكون له على الأقل فائدة قيمة ، هى أن نثبت لصديقنا الجديد كبير الأساقفة أننا نعرف كيف نستغنى عنه !... وإذا كان هناك امتياز قديم تتمسك به الأسقفية العليا تمسكاً فى صلابة الحديد فذلك هو حقها المقصور عليها وحدها فى أن تبارك وتتوج ملوك هذا البلد ... حسناً ! إن الوغد العجوز كبير أساقفة يورك — الذى دفعت أنا للبابا ثمن الرسائل الطيبة التى تجيز له ذلك — هو الذى سيتوج غداً ولدى فى كتدرائيتنا ... آه ! النكتة البارعة ! (ينفجر بضحك عال وسط صمت الآخرين) آه ! النكتة الخارقة ! آه ! كيف يكون وجه كبير الأساقفة وهو يجبر على هضم ذلك !... (لابنه) أخرج من هنا الآن ياغبى ، وعد إلى طرف المائدة مع حمك ، إنك لن تتوج رسمياً إلا غداً !

وبنظرة إلى أبيه ، خانعة وحاقدة ، يغير الغلام مكانه ، حاملا طبقة .

الملك : (الذى نظر اليه وهو يمر ، مستهزئا) يالها من نظرة ! ما أجمل المشاعر البنوية أيها السادة !... إنك لتود أن يكون هذا حقيقة واقعة ، هيه ، أيها الحيوان الصغير ؟ تود أن يكون لك رقم ثلاثة المأمول ،

وبابا هامد فى قبره ؟ ... عليك أن تنتظر قليلا ! بابا صحته حسنة ! بابا فى تمام الصحة والعافية ...

الملكة الأم : يا ولدى ! يعلم الله إن كنت نقدت محاولتك للتقرب من ذلك التعس الذى لم يجلب لنا غير الشر ... يعلم الله إن كنت أفهم حقدك عليه !.. لكن ، على الأقل ، لا يقودنك حقدك عليه إلى عمل يثقل بالنتائج ، لا لشىء إلا لسرورك بأنك تجرح كبرياءه ... إن هنرى لا يزال طفلا ، لكنك لم تكن أكبر منه بكثير عندما أردت أن تحكم بنفسك ، ضد رغبتى ... إن فى وسع البعض من أهل الطموح – الذين لا يخلو الأمر من وجودهم حول الأمراء – أن يشيروا عليه بتشكيل حزب يناوئك ، مستغلين هذا التتويج الذى تم فى عجلة ، فى تقسيم المملكة ... فكر فى هذا ، قبل فوات الأوان !

الملك : أقول لك إننا مازلنا هنا يامدام ! ولاشىء يعادل لذتى بتصور وجه صديقى المتكبر بيكيت عندما يرى الامتياز الأساسى للأسقفية العليا وقد خطف منه ! ... لقد تركت نفسى بالأمس ازدرد بضع مواد من اتفاق الصلح ، لكنى كنت أنتظره عند هذا المنعطف !

الملكة الأم : (تنتصب) هنرى ! لقد تكفلت بجسام الأمور مدة أطول مما أتيح لك ، وكنت ملكة عليك ، وأنا

أمك ... أنت مسئول عن مصالح مملكة عظيمة ، لا عن مزاجك ... ولقد أسرفت من قبل فى التنازل لملك فرنسا فى فرتيه برنارد ... إن واجبك هو الاهتمام بانجلترا ، لا بكراهيتك ، أوقل : بحبك الخائب لهذا الرجل !

الملك : (ينتصب أيضاً ، غاضباً) حبى الخائب ؟ حبى الخائب ؟ من يأذن لك يا مدام بأن تنشغلى بغرامياتى ؟

الملكة الأم : إن بك نحو هذا الرجل حقداً لا هو سليم ولاهو رجولى !... إن أباك الملك كان يعامل أعداءه بحيوية أكثر وإنجاز أكبر ... كان يأمر بقتلهم ولايطيل الكلام عنهم هكذا ... وماكنت أنت لتتصرف تصرفاً آخر لوأن توماس بيكيت كان امرأة خانتك وما تزال تحبها ... اللعنة ! ... انترعه مرة واحدة من قبلك .(تجأر فجأة) آه ! لوأنى كنت رجلا !

الملك : (متهكماً) لنشكر الله يامدام إذ وهبك ثديين لم أستفد منهما شخصياً ، فلقد رضعت من فلاحة !

الملكة الأم : (لاذعة) بلا ريب ! أيكون هذا ياولدى هو السبب فى أنك ظللت فظاً غليظاً ؟

الملكة : (بدورها تنتصب فجأة) وأنا ، أليس من حقى أن أتكلم ؟ لقد تحملت يا سيدى عشيقاتك ، لكن أتعتقد أننى سأتحمل كل شىء ؟ أتحسبنى واحدة من محظياتك أم من أى جنس تحسبنى ؟...لقد سئمت

من رؤية هذا الرجل يسد على طريق حياتى ... دائماً هو ! دائماً هو ! لا حديث هنا إلا عنه !... لعله كان أقل مضايقة لى عندما كنت تحبه ... أنا امرأة .. أنا امرأتك وملكتك ... لم أعد أرضى أن أعامل على هذا النحو ... سأشكو الى أبى ! دوق أكيتانيا ، سأشكو إلى عمى ، الإمبراطور ! سأشكو الى كل ملوك أوربا ، أقاربى ! سأشكو إلى الله !

الملك : (مرعداً ، سوقياً بعض الشيء) ألا تبدئين بالله !.. اهرعى إلى زاوية صلاتك فانظرى أهو هناك ! (يلتفت نحو أمه ، متوهجاً) وأنت أيتها السيدة الأخرى ، إهرعى إلى مكتبك ودبرى مكائدك مع مستشاريك السريين ! ... اخرجا أنتما الاثنتان ! لا أريد بعد هذا أن أراكما !... إنى أقىء من الملل عندما أراكما ! وكذلك هنرى الثالث ! تحرك وبسرعة أكثر ! (يطرده بركلات من قدمه وهو يزعق) قدمى الملكى فى أردافك الملكية ! ... وإلى الشيطان بأسرتى كلها ، إذا رغب فيها !... اخرجوا ! اخرجوا ! اخرجوا كلكم !

تخرجان فى اضطراب ، بوسوسة حرير كبيرة ، فيلتفت نحو باروناته الذين سمرهم الرعب فى أماكنهم .

الملك : (وقد هدأ قليلا) لنشرب أيها السادة ، مادام هذا هو

كل ما أستطيع عمله وأنا معكم ... لنسكر ، شأن الرجال ، طول الليل ! ... إلى أن نتدحرج تحت المائدة ، فى القىء وفى النسيان . (يخدمهم ، وهو يقربهم منه بإشارة) آه ! أغبيائى الأربعة ! أنصارى المخلصون لى ! دفؤكم يجعل المكان شبيهاً باسطبل ! عرق تمام ! عدم تمام ! (يضرب رءوسهم) لا يوجد أدنى بريق فى الداخل ، يمكن يعكر قليلا صفو الاحتفال ! ... لقد كنت – قبله – مثلكم ، آلة ضخمة متينة للتجشأ بعد الشرب ، وللتبول ، ولامتطاء البنات ، وللضرب ... ما الذى جئت به إلينا يا بيكيت فإذا بكل شيء لا يدور كما كان يدور؟ (يسأل فجأة) هل تفكر أحياناً ، أنت يا بارون ؟

البارون الثانى : أبداً يا صاحب السعادة ... إن التفكير لم ينجح قط مع أى انجليزى ... إنه غير صحى ... ثم إن للنبيل شيئاً آخر يفعله !

الملك : (هادئ النفس فجأة) لنشرب أيها السادة اعترف الناس فى جميع الأزمنة بأن السكر صحى ! (يخدم نفسه ويخدمهم . ويسأل) هل نزل بيكيت إلى الشاطىء؟ قيل لى إن البحر فى هذه الأيام كان هائجاً لدرجة لا يمكنه من العبور .

البارون الأول : (معتماً) لقد نزل إلى البر يا صاحب السعادة ، بالرغم من البحر .

الملك : أين ؟

البارون الأول : على شاطىء مهجور بالقرب من ساندوتش .

الملك : لم يشأ الله أن يغرقه ؟

البارون الأول : كلا .

الملك : (يسأل فجأة ، متخذاً سمة الفظ الخبيث) ألم يكن أحد فى انتظاره هناك ؟ هو الذى كل من فى انجلترا صديقه ؟!

البارون الأول : أجل ، كان فى انتظاره جرفيه ، فيكونت أوف كنت ، ورينوف دى بروك ورينيودى جارين ... وكان جرفيه قد قال إنه إذا جرؤ على النزول إلى الشاطىء فسوف يقطع رأسه بيده ، لكن الرجال الذين من أصل انجليزى فى كل مدن الشاطىء كانوا قد تسلحوا ليكونوا حرس كبير الأساقفة ، كما أن عميد أكسفورد ذهب للقاء البارونات وناشدهم أن لايريقوا الدم وأن يعتبروك خائنا للعهد ، مادام كبير الأساقفة كان قد حصل منك على إذن الأمان .

الملك : (معتماً) معه فعلا إذن الأمان منى .

البارون الأول : والفلاحون والعمال وصغار التجار ، على طول طريق كنتربرى ، هرعوا لاستقباله وهللوا له وحرسوه من قرية إلى قرية . ولم يخرج له أى رجل غنى أو أى نوماندى . ولا نورماندى .

الملك : السكسون فقط ؟

البارون الأول : أناس فقراء يشهرون رماحهم الصدئة ...أوباش ... لكن عددهم كبير ... وهم معسكرون حول كنتربرى

لحمايته ، على قول أعوانه من مثيرى الفتن ...كتلة ضخمة فى أسمال ، خرجت من جحورها ، هى التى ماكان يراها أحد ... وقد بدأ الأساقفة والبارونات يخشون على سلامتهم ، وهم محبوسون فى معاقلهم الحصينة ، وسط هؤلاء الرعاع القابضين على ناصية البلاد (ويختم فى كآبة) ماكان أحد يستطيع أن يتصور أن فى انجلترا هذا العدد الغفير من الناس !

يظل الملك صامتاً ، منطرحاً .

لكنه ينهض فجأة ، ويزأر :

الملك : ذلك التعس الذى أكل خبزى ! رجل إنتشلته من من العدم الذى يرزح فيه قومه ! رجل أحببته ! (يصيح كمجنون) أحببته ! (يصرخ فيهم ، كأنه تجد عقيم) أجل ، أحببته ! وأعتقد أنى مازلت أحبه ... كفى يا إلهى ! كفى ! ... ارجع عنى هذا يا إلهى ، فلقد نلت منه الكفاية !

يرتمى على سرير الراحة وهو فريسة أزمة عصبية ، معولا بالبكاء وممزقاً بأسنانه الحشية المحشوة بشعر الخيل ، ويأكل الشعر ... يقترب البارونات المندهشون ...

البارون الأول : (فى استحياء) يا صاحب السمو ...

الملك : (لايبدو عليه أنه سمعه ... يئن ورأسه مدفون فى حشيته) لا شىء ! لاأقوى على شىء ! ضعيف الإرادة

طالما بقى على قيد الحياة فلن أقدر على شىء أبداً !...
إنى أرتعد ، مدهوشاً ، أمامه ... وأنا ملك ! (يصرخ فجأة) ألن يخلصنى إذن منه أحد ؟ قسيس ! قسيس يهزأ بى ويهيننى ! ألا يوجد إذن حولى غير جبناء ، مثلى ؟ ألم يعد فى انجلترا رجل ؟ آه ! يا قلبى ! قلبى يخفق خفقاناً شديدا للغاية ! (هوراقد كالميت على الحشية الممزقة ، والبارونات الأربعة مذهولون من حوله . وفجأة ، وعلى آلة موسيقية من آلات النقر ، ينزغ إيقاع من نوع قرع الطبول المكتوم ،ولا يكون فى بدايته غير ضربات قلب الملك المضطرب ، لكنه يعظم ويتأكد ... البارونات الأربعة يتبادلون النظر فى سكون ، وينهضون فيشبكون أحزمتهم ويتناولون خوذاتهم ويخرجون ببطء ، تاركين الملك على الإيقاع المكتوم لخفقات القلب ، الذى لن يتوقف بعدها حتى الاغتيال ... الملك وحدة ، لحظة ، منطرحاً فى القاعة المهجورة التى انقلبت فيها الكراسى .. مشعل يخفق ثم ينطفىء ... ينهض ، وينظر حوله ، ويتنبه إلى أنهم خرجوا ، وفجأة يفهم السبب...عينه زائغة ... لحظة تردد ثم ينهار على حشيته وهويجأر، فى شهقة بكاء) : آه ياحبيبى توماس !

مشعل آخر ينطفىء ، ناشراً ظلمة ، ولا نعود نسمع غير الإيقاع الأصم المنتظم .

يعود النور ، غير مؤكد ، فإذا هى نفس غابة الأعمدة ، كتدرائية كنتربرى .
فى الخليفة مذبح صغير يعلو درجات ثلاث وبداية درابزين .
وفى المقدمة ، فى ركن ، بيكيت الذى يساعده الراهب الصغير فى ارتداء ثيابه الكهنوتية .
وبالقرب منهما ، على مقعد بلا ظهر ، قلنسوة الأسقفية العليا ، والصليب الفضى العالى مستند إلى عمود .

بيكيت : ينبغى أن أبدو جميلا . أسرع !
الراهب الصغير يلبسه بغير دراية . نسمع الإيقاع الأصم ، عن بعد فى البداية ، ثم يتدرج فى الاقتراب.

الراهب الصغير : إنها صعبة ، كل هذه الأربطة الصغيرة ... تلزمها أيدى ناعمة !

بيكيت : (برفق) أيدى الرجال اليوم أفضل ... دع الأربطة محلولة ... القفطان ، بسرعة ... وبعده الوشاح ، ثم العباءة ...

الراهب الصغير : (مجتهداً) لابد من عمل ما ينبغى عمله .

بيكيت : صدقت ... لابد من عمل ما ينبغى عمله ... اعقد كل الأربطة الصغيرة ، دون أن تستثنى منها واحداً ... سيعطينا الله الوقت .

صمت . الراهب الصغير يبذل غاية جهده ، غشيا ، ولسانه بارز . نسمع الايقاع أقرب .

بيكيت : (مبتسما) لا تخرج لسانك من فرط الاجتهاد !

يتأمله وهو يعمل .

الراهب الصغير : (راضياً عن نفسه ، وهو ينضح بالعرق) انتهينا كل شيء على ما يرام ! ... لكنى أفضل على هذا العناية ببهائمى ، فإنها أسهل !

بيكيت : والآن ، القفطان . (يسأل ، بينما الراهب الصغير يلبسه) هل كنت تحبها حقا ، بهائمك ؟

الراهب الصغير : (الذى تشرق نظرته) أجل .

بيكيت : عند أبى أيضاً كانت توجد بهائم عندما كنت صغيراً . (يبتسم له) نحن الاثنان من فتيان هاستنجز ! ... اعطنى القلنسوة الآن ، لأضعها على رأسى (ويقول برفق ، بينما الصغير يحضر القلنسوة) يا إلهى ! لقد منعت بطرس أن يطرق باب حديقة الزيتون ، لكنى أنا لن أحرمه من هذا الفرح ... إنه ، مهما يكن من شىء ، لم ينل منه كفايته خلال عبوره القصير هنا . (للراهب الصغير الذى وضع له القلنسوة على رأسه) اعطنى الآن صليبى الفضى ... يجب أن أمسكه ...

الراهب الصغير : (وهو يأتيه به) يا حبذا ضربة قوية بهذا ! ... ذلك أنه ثقيل الوزن ! ... آه ! لو أنى أمسكه بيدى ، أنا !

بيكيت : (يبتسم ، ويلاطفه بيده) أيها السكسونى الصغير السعيد ! إذن لدب النظام آخر الأمر فى هذا العالم الأسود إلى أبد الآبدين ! . (ينصب قامته وقد استرد رزانته) هأنذا على أهبة الاستعداد يا ربى ، متخذاً لعيدك زينتى ! لا تدع ريبة أخيرة فى فترة الانتظار هذه تتسلل إلى نفسى ...

خلال هذا المشهد يكون الايقاع قد ازداد قرباً . وهو الآن يمتزج فجأة بطرقات قوية على باب · يدخل قسيس مذعور .

القسيس : يا صاحب النيافة ! هنا أربعة رجال مسلحون . يقولون إنهم يريدون لقاءك ، من قبل الملك . وقد حصنت الباب بالمتاريس لكنهم يقتحمونه . معهم البلط ! ... عجل ! ينبغى أن تنسحب إلى قلب الكنيسة وتعطى الأمر باغلاق بوابة جوقة الترتيل ! إنها متينة !

بيكيت : (هادئاً) هذا أوان صلاة العصر يا جيوم ، فهل تغلق بوابة جوقة الترتيل فى أثناء صلاة العصر ؟ إن هذا ليكون شيئاً لم ير مثله أحد .

القسيس : (فى ذهول) كلا ، لكن ...

بيكيت : إذن فليبق كل شىء على نظامه . لن نغلق بوابة جوقة الترتيل . تعال يا صغيرى ، ولنذهب إلى المذبح ، فان المكان هنا لا يطيب لنا .

جه نحو المذبح ، يتبعه الراهب الصغير . فرقعة تحطيم ، لقد استسلم الباب . يدخل البارونات الأربعة بخوذاتهم ، شاهرين البلط التى يطوحون بها فى فوضى . يلتفت بيكيت نحوهم ، وهو عند أسفل المذبح ، جاداً وهادئاً . يتوقفون لحظة فى تردد وارتباك ، كأنهم أربعة تماثيل ضخمة ومهددة . وقد توقف الايقاع ، ولم يعد هناك غير سكون ثقيل .

ويقول بيكيت ببساطة :

بيكيت : آه ! أخيراً ها هى الحماقة ! هذه ساعتها . (لا يرفع عينيه عنهم ، وهم لا يجرءون على حركة . يسأل ببرود) بيت الله لا يدخله من يحمل سلاحاً . ماذا تريدون ؟

البارون الأول : (بصوت مكتوم) أن تموت :

صمت . ثم يضيف الثانى فجأة ، وبصوت مكتوم أيضاً :

البارون الثانى : لقد ألحقت العار بالملك ، فاهرب وإلا فأنت ميت !

بيكيت : (برفق) هذه ساعة القداس .

يستدير تجاه المذبح الذى ينتصب فوقه تمثال المسيح المصلوب ، دون أن يشغل نفسه بهم . الايقاع يعود مكتوماً . يتقدم الرجال الأربعة ، كأنهم آليون . يثب الراهب الصغير فجأة ملوحاً بالصليب الفضى

الثقيل لكى يحمى بيكيت ، لكن أحد البارونات يسقطه هامداً بضربة سيف .

بيكيت : (يهمهم شبه عتاب) حتى ولا واحد ... لو أنه صرع منهم واحدا فقط يا إلهى لملأه هذا حبوراً ... (يصيح فجأة) آه ! لكم تجعلون كل شىء صعباً ، ولكم هو ثقيل شرفكم ! (ويضيف ، فجأة ، بصوت شديد الخفوت) مسكين يا هنرى !

يهجم عليه الرجال الأربعة ، فيسقط عند الضربة الأولى . وينهالون على جسده ، بهمهمات حطابين . وقد هرب القسيس وهو يطلق صرخة هائلة فى الكتدرائية الخالية .

إظلام فجائى .

يعود النور .

فى المكان نفسه ، الملك راكع وهو عريان ، على قبر بيكيت ، كما كان فى أول المسرحية ، وأربعة من الرهبان يجلدونه بالحبال ، ويكادون يفعلون ذلك بنفس الحركات التى كانت للبارونات وهم يقتلون بيكيت .

الملك : (يصرخ) هل أنت راض يا بيكيت ؟ هل سوى حسابنا ؟ هل غسل شرف الله ؟

ينتهى الرهبان الأربعة من الضرب ، ثم يركعون خافضى الرءوس . الملك يتمتم ، ونحس أن هذا الذى

يحدث هو من الطقوس المرعية فى هذا الموقف .
لك الشكر ... أجل ... أجل ، هذا هو عهدنا ... وقد تم الغفران ... لك الشكر الكثير .

يتقدم الوصيف بعباءة واسعة ، يغطى بها الملك جسمه . يحيط البارونات بالملك وهم يساعدونه فى اللبس ، بينما يكون الأساقفة والاكليروس الذين شكلوا موكباً يبتعدون نحو الخلفية فى مهابة ، على صوت الأرغن . يرتدى الملك ملابسه بمساعدة باروناته ، وهو غير معتدل المزاج . وجهه المتجهم يعبر عن انحراف مزاجه ، وهو يغمغم :

الملك : الخنازير ! إن الأساقفة النورمانديين تظاهروا بالانصياع لأوامرى ، أما صغار الرهبان السكسون فهم يأخذون بحقهم :

بارون : (يتقدم مقبلا من الخارج . نسمع قرع أجراس مرحة) مولاى ، نجحت العملية ! يبدو أن الجمهور السكسونى يصرخ من الحماس حول الكتدرائية ، هاتفاً باسم جلالتكم فى نفس الوقت الذى يهتف فيه باسم بيكيت ... وإذا كان السكسون الآن معنا فان أنصار الأمير هنرى فيما يبدو قد ضاعوا بشكل نهائى .

الملك : (بقدر كاف من الجلالة الخبيثة ، تحت مظهر الصبى الكبير) شرف الله أيها السادة شىء حسن ، والمرء إذا عمل حسبته يجد أنه يكسب إذا جعله

صفه ... هكذا كان يقول توماس بيكيت — الذى كان صديقنا ... إن انجلترا ستظل مدينة له بانتصارها الحاسم على الفوضى ... وإرادتنا هى أن تقدم إليه الدعوات وأن يكرم فى هذه المملكة بوصفه قديساً ... هلموا أيها السادة ، وفى هذا المساء نقرر فى اجتماع المجلس ما ينبغى نحوه من تمجيد ، كما نقرر عقوبة قتلته .

البارون الأول : (رزيناً) يا مولاى ، إنهم مجهولون .

الملك : (ينظر إليه ويقول له وهو غامض) سنأمر رجال قضائنا بالبحث عنهم يا بارون ، وأنت بالذات ستكلف بأمر هذا التحقيق ، حتى لا يجهل الجميع إرادتنا الملكية القاضية بالدفاع منذ الآن عن شرف الله وعن ذكرى صديقنا .

يعود صوت الأرغن ويتعالى مفعماً بالانتصار ، وممتزجاً برنين الأجراس وهتافات الجمهور المرحة ، خلال خروجهم .

ينزل الستار .

مفكرة

عندما عرضت على مسرح باريس ، ألغى مشهد براري ساندوتش ، ليصبح الحوار بين الراهب الصغير وبيكيت فى المشهد قبل الأخير كما يلى :

بيكيت : هل كنت تحبها ، البهائم ؟

الراهب الصغير : أجل .

بيكيت : عند أبى أيضاً كانت توجد بهائم عندما كنت صغيرا ... نحن الاثنان من فتيان هاستنجز ... هل أنت آسف على سكينك ؟

الراهب الصغير : اجل . (يسأل ببساطة) هل اليوم موعدنا ؟

بيكيت : بلا ريب يا ولدى (ينظر إليه) أنت خائف .

الراهب الصغير : (ببساطة) أوه ، لا ، إذا اتسع لى الوقت للقتال ... كل ما أريده قبل موتى هو أن أضرب بضع ضربات ، وأن لا تكون كل مهمتى تلقى الضربات ... لو أنى قتلت قبل موتى نورمانديا واحداً فحسب — واحدا ، فأنا لا أغالى بطلبى — واحدا بواحد ، فان هذا سيبدو لى على كل حال من العدل ...

بيكيت : (ينظر إليه مبتسما) هل أنت متمسك كل التمسك بأن تقتل منهم واحداً ؟

الراهب الصغير : أجل ، وبعدها يستوى عندى أن لا أكون غير حبة رمل صغيرة ، ولا شيء غير هذا ، ما دمت أعرف

أن الاستمرار فى وضع حبات الرمل فى الآلة سينتهى بها يوماً إلى أن يسمع صريرها وتتوقف عن الحركة .

بيكيت : (برفق) ويومذاك ؟

الراهب الصغير : يومذاك نضع فى مكان الآلة القديمة آلة جديدة جميلة وحسنة التزييت ، وسيكون النورمانديون فى هذه المرة هم الذين نحشرهم بداخلها . (يسأل باخلاص) أليست هذه هى العدالة ؟

بيكيت : (ينظر إليه مبتسما دون أن يجيب . ثم يقول ببساطة) جئنى الآن بالقلنسوة لأضعها فوق رأسى

(يبتعد الصغير ، ويواصل بيكيت كلامه :) يا إلهى ، لقد نهيت بطرس أن يطرق باب حديقة الزيتون ، الخ الخ